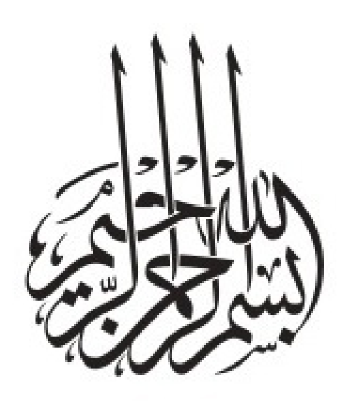
ترجمة
إحسان قاسم الصالحي

كلماتٌ صغيرة
في العِبادةِ والعقيدة

بديع الزمان
سعيد النورسي



اسم الكتاب: **كلمات صغيرة في العبادة والعقيدة**

اسم المؤلف: بديع الزمان سعيد النورسي

اسم المترجم: إحسان قاسم الصالحي

اسم المطبعة: **مطبعة الخلود - بغداد - العراق**

الطبعة : ١٩٨٦م

مِن كُلّيّاتِ رَسائِلِ النُّور

كلماتٌ صغيرة

في العقيدة والعبادة

تأليف
بديع الزمان سعيد النورسي

ترجمة
احسان قاسم الصالحي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَبِهِ نَستَعِينُ

اَلْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ
وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ
وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعِينَ

أيها الأخ!

لقد سألتَني بعضَ النصائح، فها أنذا أسدي إليك بضعَ حقائق ضمن ثماني حكايات قصيرة، فاستمع إليها مع نفسي التي أراها أحوجَ ما تكون إلى النصيحة، وسأوردُها لك بأمثلة عسكرية لكونك جنديا، فلقد خاطبتُ بها نفسي يوما خطابا مسهبا، في ثماني «كلمات» أفدتُها من ثماني آيات كريمات، أذكرها الآن لنفسي ذكرا مقتضبا، وبلسان العوام، فمَن يجد في نفسه الرغبةَ فليُلق السمعَ معنا.

الكلمة الأولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«**بسم الله**» رأسُ كلِّ خيرٍ وبدءُ كل أمر ذي بال، فنحن أيضا نستهل بها.

فيا نفسي اعلمي أن هذه الكلمةَ الطيبة المباركة كما أنها شعارُ الإسلام، فهي ذكرُ جميعِ الموجودات بألسنةِ أحوالها.

فإن كنتِ راغبةً في إدراك مدى ما في «**بسم الله**» من قوة هائلة لا تنفد، ومدى ما فيها من بركة واسعة لا تنضُب، فاستمعي إلى هذه الحكاية التمثيلية القصيرة:

إن البدوي الذي يتنقل في الصحراء ويسيح فيها لابد له أن ينتميَ إلى رئيس قبيلة، ويدخلَ تحت حمايته، كي ينجو من شر الأشقياء، وينجزَ أشغاله ويتداركَ حاجاته،

وإلّا فسيبقى وحده حائرا مضطربا أمام كثرة من الأعداء، وكثرة من الحاجات التي لا حدَّ لها.

وهكذا.. فقد توافق أن قام اثنان بمثل هذه السياحة. كان أحدهما متواضعا، والآخرُ مغرورا. فالمتواضع انتسب إلى رئيس، بينما المغرورُ رفض الانتساب. فتجوّلا في هذه الصحراء. فما كان المنتسب يحلّ في خيمة إلّا ويقابَل بالاحترام والتقدير بفضل ذلك الاسم. وإن لقيَه قاطعُ طريق يقول له: «إنني أتجوّل باسم ذلك الرئيس». فيتخلى عنه الشقي. أما المغرورُ فقد لاقى من المصائب والويلات ما لا يكاد يوصَف، إذ كان طوال السفرة في خوف دائم ووَجَل مستمر، وفي تسوّل مستديم، فأذلّ نفسه وأهانَها.

فيا نفسي المغرورةَ! اعلمي أنك أنتِ ذلك السائح البدوي. وهذه الدنيا الواسعةُ هي تلك الصحراء. وإن «فقركِ» و«عجزكِ» لا حدّ لهما، كما أن أعداءَك وحاجاتِك لا نهاية لهما. فما دام الأمر هكذا فتقلّدي اسمَ المالك الحقيقي لهذه الصحراء وحاكِمها الأبدي، لتَنجيَ من ذُلّ التسول أمام الكائنات ومهانةِ الخوف أمام الحادثات.

نعم، إن هذه الكلمة الطيبة «**بسم الله**» كنز عظيم لا يفنى أبدا، إذ بها يرتبط «فقرُك» برحمة واسعة مطلقة

أوسعَ من الكائنات، ويتعلق «عجزُك» بقدرة عظيمة مطلقة تمسك زمام الوجود من الذرات إلى المجرات، حتى إنه يصبح كلّ من عجزك وفقرك شفيعين مقبولَين لدى القدير الرحيم ذي الجلال.

إنّ الذي يتحرك ويسكُن ويُصبحُ ويُمسي بهذه الكلمة «**بسم الله**» كمَن انخرط في الجندية؛ يتصرف باسم الدولة ولا يخاف أحدا، حيث إنه يتكلم باسم القانون وباسم الدولة، فيُنجِز الأعمال ويَثبُت أمام كل شيء.

وقد ذكرنا في البداية أنّ جميعَ الموجودات تذكُر بلسان حالها اسمَ الله، أي أنها تقول: «**بسم الله**»، أهو كذلك؟

نعم، فكما لو رأيت أن أحدا يسوق الناسَ إلى صعيد واحد، ويُرغمهم على القيام بأعمال مختلفة، فإنك تتيقّن أن هذا الشخص لا يمثّل نفسَه ولا يسوق الناس باسمه وبقوته، وإنما هو جندي يتصرف باسم الدولة، ويستند إلى قوة سلطان.

فالموجودات أيضا تؤدي وظائفَها باسم الله. فالبذيرات المتناهية في الصغر تحمل فوق رؤوسها باسم الله أشجارا ضخمة وأثقالا هائلة. أيْ أن كل شجرة تقول «**بسم الله**»

وتملأ أيديَها بثمرات من خزينة الرحمة الإلهية وتقدّمها إلينا. وكل بستان يقول «**بسم الله**» فيغدو مطبخا للقدرة الإلهية تنضج فيه أنواع من الأطعمة اللذيذة. وكل حيوان من الحيوانات ذات البركة والنفع -كالإبل والماعز والبقر- يقول «**بسم الله**» فيُصبح ينبوعا دفّاقا للّبن السائغ، فيقدّم إلينا باسم الرزاق ألطفَ مغذّ وأنظفَه. وجذورُ كل نبات وعشب تقول «**بسم الله**» وتشقُّ الصخور الصلدة باسم الله وتثقبها بشعيراتها الحريرية الرقيقة فيُسخَّر أمامَها باسم الله وباسم الرحمن كلُّ أمر صعب وكلُّ شيءٍ صلد.

نعم، إن انتشار الأغصان في الهواء وحملَها للأثمار، وتشعّبَ الجذور في الصخور الصماء، وخزنَها للغذاء في ظلمات التراب.. وكذا تحمّل الأوراق الخضراء شدةَ الحرارة ولفحاتها، وبقاءها طرية نديّة.. كلُّ ذلك وغيرُه صفعة قوية على أفواه الماديين عَبَدة الأسباب، وصرخة مدوية في وجوههم، تقول لهم: «إن ما تتباهَون به من صلابة وحرارة أيضا لا تعملان بنفسهما، بل تؤديان وظائفَهما بأمرِ آمرٍ واحدٍ، بحيث يجعل تلك العروق الدقيقة الرقيقة كأنها عصا موسى تشق الصخور وتمتثل أمر ﴿ **فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ** ﴾ (البقرة: ٦٠)

ويجعل تلك الأوراق الطرية الندية كأنها أعضاءُ إبراهيم عليه السلام تقرأ تجاه لفحةِ الحرارة:

«﴿ يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا ﴾ (الأنبياء: ٦٩)»

فما دام كل شيء في الوجود يقول معنىً «**بسم الله**» ويجلب نِعَم الله باسم الله ويقدّمها إلينا، فعلينا أن نقول أيضا «**بسم الله**» ونعطي باسم الله ونأخذ باسم الله. وعلينا أيضا أن نردّ أيدي الغافلين الذين لم يعطوا باسم الله.

سؤال: إننا نبدي احتراما وتوقيرا لمن يكون سببا لنعمة علينا، فيا ترى ماذا يطلب منا ربنُّا الله صاحبُ تلك النِعم كلها ومالكُها الحقيقي؟

الجواب: إن ذلك المُنعم الحقيقي يطلب منّا ثلاثة أمور ثمنا لتلك النعم الغالية:

الأول: الذكر.. الثاني: الشكر.. الثالث: الفكر..

فـ«**بسم الله**» بدءا هي ذكر، و«**الحمد لله**» ختاما هي شكر، وما يتوسطهما هو فكر، أي التأمل في هذه النعم البديعة، والإدراك بأنها معجزةُ قدرةِ الأحد الصمد وهدايا رحمته الواسعة.. فهذا التأمل هو الفكر.

ولكن أليس الذي يُقبّل أقدامَ الجندي الخادم الذي يقدّم هديةَ السلطان يرتكب حماقةً فظيعة وبلاهة مشينة؟

إذن فما بال مَن يُثني على الأسباب المادية الجالبة للنِعم، ويخصصها بالحب والودّ دون المنعم الحقيقي! ألَا يكون مقترفا بلاهةً أشدَّ منها ألف مرة؟

فيا نفس!! إن كنت تأبَين أن تكوني مثل الأحمق الأبله، **فأعطي باسم الله .. وخذي باسم الله.. وابدئي باسم الله.. واعملي باسم الله..** والسلام.

الكلمة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ ﴾ (البقرة:٢)

إن كنتَ تريد أن تعرف مدى ما في الإيمان من سعادة ونعمة، ومدى ما فيه من لذة وراحة، فاستمع إلى هذه الحكاية القصيرة:

خرج رجلان في سياحة ذات يوم، من أجل الاستجمام والتجارة. فمضى أحدُهما وكان أنانيا شقيا إلى جهة، ومضى الآخر وهو رباني سعيد إلى جهة ثانية.

فالأناني المغرور الذي كان متشائما لقي بلدا في غاية السوء والشؤم في نظره، جزاءً وفاقا على تشاؤمه، حتى إنه كان يرى -أينما اتّجه- عجَزةً مساكين يصرخون ويولولون من ضربات أيدي رجال طغاة قساة ومن أعمالهم المدمّرة. فرأى هذه الحالة المؤلمة الحزينة في كل ما يزوره من أماكن، حتى اتخذت المملكةُ كلُّها في نظره شكلَ دار مأتم عام. فلم يجد لنفسه علاجا لحاله المؤلم المظلم غير السُكر، فرمى نفسه

في نشوته لكيلا يشعرَ بحاله، إذ صار كلُّ واحد من أهل هذه المملكة يتراءى له عدوا يتربّص به، وأجنبيا يتنكّر له، فظل في عذاب وجداني مؤلم لِما يرى فيها حوله من جنائزَ مُرعبة ويتامى يبكون بكاءً يائسا مريرا.

أمّا الآخر، الرجل الربّاني العابد لله، والباحث عن الحق، فقد كان ذا أخلاقٍ حسنة بحيث لقيَ في رحلته مملكةً طيّبة هي في نظره في منتهى الروعة والجمال. فهذا الرجل الصالح يرى في المملكة التي دخلها احتفالات رائعة ومهرجانات بارعة قائمة على قَدم وساق، وفي كل طرف سرورا، وفي كل زاوية حبورا، وفي كل مكان محاريبَ ذِكر.. حتى لقد صار يرى كل فرد من أفراد هذه المملكة صديقا صدوقا وقريبا حبيبا له. ثم يرى أن المملكة كلَّها تعلن -في حفل التسريح العام- هتافات الفرح بصيحة مصحوبة بكلمات الشكر والثناء. ويسمع فيهم أيضا أصواتَ الجوقة الموسيقية وهي تقدّم ألحانَها الحماسية مقترنة بالتكبيرات العالية والتهليلات الحارة بسعادة واعتزاز للذين يُساقون إلى الخدمة والجندية.

فبينما كان ذلك الرجلُ الأول المتشائم منشغلا بألَمِه وآلام الناس كلِّهم. كان الثاني السعيدُ المتفائل مسرورا مع

سرور الناس كلِّهم فَرِحا مع فرحهم. فضلا عن أنه غَنِم لنفسه تجارة حسنة مباركة فشكر ربَّه وحمده.

ولدى عودته إلى أهله، يَلقى ذلك الرجلَ فيسأل عنه وعن أخباره، فيعلم كل شيء عن حاله فيقول له: «يا هذا لقد جُنِنتَ! فإنّ ما في باطنك من الشؤم انعكس على ظاهرك، بحيث أصبحتَ تتوهم أن كل ابتسامة صراخ ودموع، وأنّ كل تسريح وإجازة نَهب وسلب. عُد إلى رُشدك، وطهّر قلبَك، لعل هذا الغشاء النكد ينـزاح عن عينيك. وعسى أن تبصر الحقيقة على وجهها الأبلج. فإن صاحب هذه المملكة ومالكَها وهو في منتهى درجات العدل والمرحمة والربوبية والاقتدار والتنظيم المبدع والرفق.. وإن مملكة بمثل هذه الدرجة من الرقي والسمو مما تريك من آثار بأم عينيك.. لا يمكن أن تكون بمثل ما تريه أوهامُك من صور».

وبعد ذلك بدأ هذا الشقي يراجع نفسَه ويرجع إلى صوابه رويدا رويدا، ويفكر بعقله ويقول متندما: «نعم لقد أصابني جنون لكثرة تعاطي الخمر.. ليرضَ الله عنك، فلقد أنقذتَني من جحيم الشقاء».

فيا نفسي! اعلمي أن الرجل الأول هو «الكافر» أو «الفاسق الغافل». فهذه الدنيا في نظره بمثابة مأتم

عام، وجميع الأحياء أيتام يبكون تألما من ضربات الزوال وصفعات الفراق.

أما الإنسان والحيوان فمخلوقات سائبة بلا راعٍ ولا مالك، تتمزق بمخالب الأجَل وتعتصر بمعصرته. وأما الموجودات الضِّخام -كالجبال والبحار- فهي في حُكم الجنائز الهامدة والنعوش الرهيبة. وأمثال هذه الأوهام المدهشة المؤلمة الناشئة من كفر الإنسان وضلالته تذيق صاحبَها عذابا معنويا مريرا.

أما الرجل الثاني، فهو «المؤمن» الذي يعرف خالقَه حق المعرفة ويؤمن به. فالدنيا في نظره دارُ ذكر رحماني، وساحةُ تعليمٍ وتدريب البشر والحيوان، وميدانُ ابتلاءٍ واختبارٍ للإنس والجان. أما الوفيات كافة -من حيوان وإنسان- فهي إعفاء من الوظائف، وإنهاء من الخدمات. فالذين أنهوا وظائف حياتهم، يودِّعون هذه الدار الفانية وهم مسرورون معنويا، حيث إنّهم يُنقَلون إلى عالم آخر غير ذي قلق، خالٍ من أوضار المادة وأوصاب الزمان والمكان وصروف الدهر وطوارق الحدثان، لينفسح المجالُ واسعا لموظفين جُدد يأتون للسعي في مهامهم.

أما المواليد كافة -من حيوان وإنسان- فهي سَوقة تجنيدٍ عسكرية، وتسلُّمُ سلاح، وتسنّم وظائف وواجبات،

فكل كائن إنما هو موظف وجندي مسرور، ومأمور مستقيم راضٍ قانع. وأما الأصوات المنبعثة والأصداء المرتدّة من أرجاء الدنيا فهي إما ذكر وتسبيح لتسنّم الوظائف والشروع فيها، أو شكر وتهليل إيذانا بالانتهاء منها، أو أنغام صادرة من شوق العمل وفرحته.

فالموجودات كلها -في نظر هذا المؤمن- خدّام مؤنسون، وموظفون أخلّاء، وكتب حلوة لسيده الكريم ومالكه الرحيم.

وهكذا يتجلى من إيمانه كثير جدا من أمثال هذه الحقائق التي هي في غاية اللطف والسمو واللذة والذوق. فالإيمان إذن يضم حقا بذرة معنوية منشقة من «طوبى الجنة». أما الكفر فإنه يخفي بذرة معنوية قد نفثته «زقومُ جهنم».

فالسلامة والأمان إذن لا وجود لهما إلّا في الإسلام والإيمان. فعلينا أن نردد دائما:

الحمد لله على دين الإسلام وكمال الإيمان.

الكلمة الثالثة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا ﴾ (البقرة:٢١)

إن كنتَ تريد أن تفهم كيف أن العبادة تجارة عظمى وسعادة كبرى، وأن الفسق والسَفَه خسارة جسيمة وهلاك محَقّق، فانظر إلى هـذه الحكاية التمثيلية وأنصت إليها:

تسلَّم جنديان اثنان -ذات يوم- أمرا بالذهاب إلى مدينة بعيدة، فسافرا معا إلى أن وصلا مفرق طريقين، فوجدا هناك رجلا يقول لهما:

«إن هذا الطريق الأيمن، مع عدم وجود الضرر فيه، يجد المسافرون الذين يسلكونه الراحةَ والاطمئنان والربح مضمونا بنسبة تسعةٍ من عشرة. أما الطريق الأيسر، فمع كونه عديم النفع يتضرر تسعة من عشرة من عابريه. علما أن كليهما في الطول سواء، مع فرق واحد فقط، هو أن المسافر المتجه نحو الطريق الأيسر -غير المرتبط بنظامٍ وحكومة- يَمضي بلا حقيبةِ متاعٍ ولا سلاح، فيجد في نفسه خفَّةً

ظاهرة وراحةً موهومة. غير أن المسافر المتّجه نحو الطريق الأيمن -المنتظِم تحت شرف الجندية- مضطر لحمل حقيبة كاملة من مستخلصات غذائية تزن أربع «أوقيات» وسلاحا حكوميا يزن «أوقيتين» يستطيع أن يغلب به كلَّ عدو».

وبعد سماع هذين الجنديين كلامَ ذلك الرجل الدليل، سلك المحظوظُ السعيد الطريقَ الأيمن، ومضى في دربه حاملا على ظهره وكتفه رطلا من الأثقال إلّا أنّ قلبَه وروحه قد تخلّصا من آلاف الأرطال من ثقل المنّة والخوف. بينما الرجل الشقي المنكود الذي آثر ترك الجندية ولم يُرد الانتظامَ والالتزام، سلك سبيـل الشمال. فمـع أن جسمَه قد تخلص من ثقل رطلٍ فـقد ظل قلبه يرزح تحت آلاف الأرطال من المنِّ والأذى، وانسحقت روحُه تحت مخاوفَ لا يحصرها الحد. فمضى في سبيله مستجديا كلَّ شخص، وَجِلا مرتعشا من كل شيء، خائفا من كل حادثة، إلى أن بلغ المحل المقصود فلاقى هناك جزاءَ فراره وعصيانه.

أما المسافر المتوجّه نحو الطريق الأيمن -ذلك المحب لنظام الجندية والمحافظ على حقيبته وسلاحه- فقد سار منطلقا مرتاحَ القلب مطمئنّ الوجدان من دون أن يلتفت إلى منّة أحد أو يطمعَ فيها أو يخاف من أحد، إلى أن بلغ

المدينة المقصودة وهنالك وجد ثوابَه اللائقَ به كأيّ جندي شريف أنجز مهمته بالحسنى.

فيا أيتها النفس السادرة السارحة! اعلمي أن ذينك المسافرين أحدهما أولئك المستسلمون المطيعون للقانون الإلهي، والآخر هم العصاةُ المتّبعون للأهواء. وأما ذلك الطريق فهو طريق الحياة الذي يأتي من عالم الأرواح ويمر من القبر المؤدي إلى عالم الآخرة. وأما تلك الحقيبة والسلاح فهما العبادةُ والتقوى. فمهما يكن للعبادة من حِمل ثقيل ظاهرا إلّا أن لها في معناها راحةً وخفة عظيمتين لا توصفان، ذلك لأن العابد يقول في صلاته «**لا إله إلّا الله**» أي لا خالق ولا رازق إلّا هو، النفعُ والضر بيده، وإنه حكيم لا يعمل عبثا كما أنه رحيم واسع الرحمة والإحسان.

فالمؤمن يعتقد بما يقول، لذا يجد في كل شيء بابا ينفتح إلى خزائن الرحمة الإلهية، فيطرقُه بالدعاء، ويرى أن كل شيء مسخَّر لأمر ربه، فيلتجئُ إليه بالتضرع. ويتحصَّن أمام كلِّ مصيبة مستندا إلى التوكل، فيمنحه إيمانُه هذا الأمانَ التام والاطمئنان الكامل.

نعم، إن منبع الشجاعة ككلّ الحسنات الحقيقية هو الإيمانُ والعبودية، وإن منبع الجُبن ككل السيئات

هو الضلالةُ والسفاهة. فلو أصبحت الكرةُ الأرضية قنبلةً مُدمِّرة وانفجرت، فلربما لا تخيف عابدا لله ذا قلب منوَّر، بل قد ينظر إليها أنها خارقة من خوارق القدرة الصمدانية، ويتملاها بإعجاب ومتعة، بينما الفاسق ذو القلب الميت ولو كان فيلسوفا -ممن يُعدّ ذا عقل راجح- إذا رأى في الفضاء نجما مذنّبا يعتَوره الخوف ويرتعش هلعا ويتساءل بقلق: «ألا يمكن لهذا النجم أن يرتطم بأرضنا؟» فيتردى في وادي الأوهام (لقد ارتعد الأمريكان يوما من نجم مذنّب ظهر في السماء حتى هجر الكثيرون مساكنهم أثناء ساعات الليل).

نعم، رغم أن حاجات الإنسان تمتد إلى ما لا نهاية له من الأشياء، فرأسُ ماله في حُكم المعدوم. ورغم أنه معرَّض إلى ما لانهاية له من المصائب فاقتداره كذلك في حكم لا شيء، إذ إنّ مدى دائرتَي رأس ماله واقتداره بقدر ما تصل إليه يدُه، بينما دوائر آماله ورغائبه وآلامه وبلاياه واسعة سعة مدِّ البصر والخيال.

فما أحوجَ روحَ البشر العاجزة الضعيفة الفقيرة إلى حقائق العبادة والتوكل، وإلى التوحيد والاستسلام! وما أعظمَ ما ينال منها من ربح وسعادة ونعمة! فمَن لم يفقِد بصرَه كليا يرَ ذلك ويُدركه. إذ من المعلوم أن الطريق

غير الضار يُرجَّح على الطريق الضار حتى لو كان النفعُ فيه احتمالا واحدا من عشرة احتمالات. علما أن مسألتنا هذه، طريق العبادة، فمع كونه عديمَ الضرر، واحتمالُ نفعِه تسعة من عشرة، فإنه يعطينا كنـزا للسعادة الأبدية، بينما طريق الفسق والسفاهة -باعتراف الفاسق نفسه- فمع كونه عديم النفع فإنه سبب الشقاء والهلاك الأبديين، مع يقين للخسران وانعدام الخير بنسبة تسعة من عشرة. وهذا الأمر ثابت بشهادة ما لا يحصى من «أهل الاختصاص والإثبات» بدرجة التواتر والإجماع. وهو يقين جازم في ضوء إخبار أهل الذوق والكشف.

نحصل من هذا: أن سعادة الدنيا أيضا -كالآخرة- هي في العبادة وفي الجندية الخالصة لله.

فعلينا إذن أن نردد دائما:

«الحمد لله على الطاعة والتوفيق»

وأن نشكرَه سبحانه وتعالى على أننا مسلمون.

الكلمة الرابعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«الصلاةُ عماد الدين»[(١)]

إن كنتَ تريد أن تعرف أهميةَ الصلاة وقيمتها، وكم هو يسير نيلُها وزهيد كسبُها، وأنَّ مَن لا يُقيمها ولا يؤدي حقها أبله خاسر.. نعم، إن كنت تريد أن تعرف ذلك كلَّه بيقين تـام -كحاصل ضربِ الاثنين في اثنين يساوي أربعا- فتأمل في هـذه الحكاية التمثيلية القصيرة:

يُرسِل حاكم عـظيم -ذات يوم- اثنين من خَدَمه إلى مزرعته الجميلة، بعد أن يمنح كلا منهما أربعا وعشرين ليرة ذهبية، ليتمكّنا بها من الوصول إلى المزرعة التي هي على بُعد شهرين. ويأمرهما: «أنفِقا من هذا المبلغ لمصاريف التذاكر ومتطلبات السفر، واقتنيا ما يلزمكما هناك من لوازم السكن والإقامة. هناك محطة للمسافرين على بُعد يوم واحد، توجد

(١) البيهقي، شعب الإيمان ٣/ ٣٨؛ الديلمي، المسند ٢/ ٤٠٤؛ الترمذي، ١٨الإيمان ٨؛ أحمد بن حنبل، المسند ٥/ ٢٣١، ٢٣٧.

فيها جميعُ أنواع وسائط النقل من سيارة وطائرة وسفينة وقطار.. ولكلٍ ثمنه».

يخرج الخادمان بعد تسلّمهما الأوامر. كان أحدهما سعيدا محظوظا، إذ صرف شيئا يسيرا مما لديه لحين وصوله المحطة، صرفَه في تجارةٍ رابحة يَرضى بها سيدُه، فارتفع رأسُ ماله من الواحد إلى الألف. أما الخادم الآخر، فلِسوء حظه وسفاهته صرف ثلاثا وعشرين مما عنده من الليرات الذهبية في اللهو والقمار، فأضاعها كلَّها إلّا ليرةً واحدة منها لحين بلوغه المحطة.

خاطبه صاحبُه: «يا هذا.. اشترِ بهذه الليرة الباقية لديك تذكرةَ سفر، فلا تضيّعها كذلك، فسيدُنا كريم رحيم، لعلّه يشملك برحمته وينالك عفوُه عما بدَر منك من تقصير، فيسمحوا لك بركوب الطائرة، ونبلغ معا محل إقامتنا في يوم واحد. فإن لم تفعل ما أقوله لك فستضطر إلى مواصلة السير شهرين كاملين في هذه المفازة مشيا على الأقدام، والجوعُ يفتك بك، والغربة تخيّم عليك وأنت وحيد شارد في هذه السفرة الطويلة».

تُرى لو عاند هذا الشخص، فصرف حتى تلك الليرة الباقية في سبيل شهوة عابرة، وقضاء لذة زائلة، بدلا

من اقتناء تذكرة سفر هي بمثابة مفتاح كنـزٍ له. ألَا يعني ذلك أنه شقي خاسر، وأبله بليد حقا ؟ ألا يُدرك هذا أغبى إنسان؟

فيا من لا يؤدي الصلاة! ويا نفسي المتضايقة منها! إن ذلك الحاكمَ هو ربُّنا وخالقنا جلّ وعلا. أما ذلكما الخادمان المسافران، فأحدُهما هو المتديّن الذي يقيم الصلاة بشوق ويؤديها حق الأداء، والآخر هو الغافل التارك للصلاة. وأما تلك الليرات الذهبية «الأربعة والعشرون» فهي الأربع والعشرون ساعةً من كل يوم من أيام العمر. وأما ذلك البستان الخاص فهو الجنة. وأما تلك المحطة فهي القبر.

وأما تلك السياحة والسفر الطويل فهي رحلة البشر السائرة نحو القبر والماضية إلى الحشر والمنطلقة إلى دار الخلود. فالسالكون لهذا الطريق الطويل يقطعونه على درجات متفاوتة، كلّ حسب عمله ومدى تقواه. فقسم من المتقين يقطعون في يوم واحد مسافةَ ألف سنة كأنهم البرق. وقسم منهم يقطعون في يوم واحد مسافة خمسين ألف سنة كأنهم الخيال. وقد أشار القرآن العظيم إلى هذه الحقيقة في آيتين كريمتين. أما تلك التذكرة فهي الصلاة التي لا تستغرق خمسُ صلوات مع وضوئها أكثر من ساعة!

فيا خسارةَ مَن يصرف ثلاثا وعشرين من ساعاته على هذه الحياة الدنيا القصيرة ولا يصرف ساعةً واحدة على تلك الحياة الأبدية المديدة! ويا له من ظالم لنفسه مبين! ويا له من أحمقَ أبله!

لئن كان دفعُ نصف ما يملكه المرءُ ثمنا لقمار اليانصيب -الذي يشترك فيه أكثرُ من ألف شخص- يُعدّ أمرا معقولا، مع أن احتمال الفوز واحد من ألف، فكيف بالذي يحجم عن بذل واحدٍ من أربعة وعشرين مما يملكه في سبيل ربح مضمون، ولأجلِ نَيل خزينة أبدية، باحتمال تسع وتسعين من مائة.. ألَا يُعدّ هذا العمل خلافا للعقل ومجانبا للحكمة؟ ألَا يدرك ذلك كلُّ من يعدّ نفسَه عاقلا ؟

إن الصلاة بذاتها راحة كبرى للروح والقلب والعقل معا. فضلا عن أنّها ليست عملا مرهقا للجسم. وفوق ذلك فإن سائر أعمال المصلي الدنيوية المباحة ستكون له بمثابة عبادة لله، وذلك بالنية الصالحة، فيستطيع إذن أن يحوّل المصلي جميعَ رأسِ مال عمره إلى الآخرة، فيكسبُ عمرا خالدا بعمره الفاني.

الكلمة الخامسة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾

(النحل:١٢٨)

إذا أردتَ أن ترى أن إقامة الصلاة واجتناب الكبائر وظيفة حقيقية تليق بالإنسان ونتيجة فطرية ملائمة مع خلقته، فتأمّل في هذه الحكاية التمثيلية القصيرة واستمع إليها:

كان في الحرب العالمية، وفي أحد الأفواج، جنديان اثنان، أحدهما مدرَّب على مهمته مجدّ في واجبه. والآخر جاهل بوظيفته متّبع هواه. كان المُتقن واجبَه يهتم الاهتمام كلَّه بأوامر التدريب وشؤون الجهاد. ولم يكن ليفكر قط بلوازم معاشه وأرزاقه، حيث إنه أدرك يقينا أن إعاشتَه ورعايةَ شؤونه وتزويدَه بالعتاد، بل حتى مداواته إذا تمرض، بل حتى وضع اللقمة -إذا احتاج الأمر- في فمه، إنما هو من واجب الدولة. وأما واجبُه الأساس فهو التدّرب

على أمور الجهاد ليس إلّا، مع علمه أن هذا لا يمنع من أن يقوم بشؤون التجهيز وبعض أعمال الإعاشة كالطهي وغسل المواعين، وحتى في هذه الأثناء لو سُئل: «ماذا تفعل؟» لقال: «إنما أقوم ببعض واجبات الدولة تطوّعا»، ولا يجيب: «إنني أسعى لأجل كسب لوازم العيش».

أما الجنديُ الآخر، الجاهلُ بواجباته فلم يكن ليُبالي بالتدريب ولا يهتم بالحرب. فكان يقول: «ذلك من واجب الدولة، وما لي أنا؟!» فيشغل نفسَه بأمور معيشته ويلهث وراء الاستزادة منها حتى كان يَدَع الفوج ليزاول البيع والشراء في الأسواق.

قال له صديقُه المجدّ ذات يوم: «يا أخي! إنّ مهمتك الأصلية هي التدرّب والاستعداد للحرب، وقد جيء بك إلى هنا من أجل ذلك. فاعتمد على السلطان واطمئن إليه في أمر معاشك، فلن يَدَعَك جائعا، فذلك واجبُه ووظيفته. ثم إنك عاجز وفقير لن تستطيع أن تدير أمورَ معيشتك بنفسك. وفوق هذا فنحن في زمن جهادٍ وفي ساحة حرب عالمية كبرى. أخشى أنهم يعُدّونك عاصيا لأوامرهم فينـزلون بك عقوبة صارمة.

نعم؛ إن وظيفتين اثنتين تبدوان أمامنا: إحداهما: وظيفة السلطان، وهي قيامه بإعاشتنا. ونحن قد نُستخدم مجانا

في إنجاز تلك الوظيفة. وأخراهما: هي وظيفتنا نحن، وهي التدريب والاستعداد للحرب، والسلطان يقدّم لنا مساعدات وتسهيلات لازمة».

فيا أخي تأمل لو لم يُعِر الجنديُّ المهمِل سمعا لكلام ذلك المجاهد المدرَّب كم يكون خاسرا ومتعرضا للأخطار والتهلكة؟!

فيا نفسي الكسول! إن تلك الساحة التي تمور مورا بالحرب هي هذه الحياةُ الدنيا المائجة. وأمّا ذلك الجيش المقسّم إلى الأفواج فهو الأجيال البشرية. وأمّا ذلك الفوج نفسُه فهو المجتمع المسلم المعاصر. وأمّا الجنديان الاثنان، فأحدهما هو العارف بالله والعامل بالفرائض والمجتنب الكبائرَ، وهو ذلك المسلم التقي الذي يجاهد نفسه والشيطان خشية الوقوع في الخطايا والذنوب. وأما الآخر فهو الفاسق الخاسر الذي يلهث وراء هموم العيش لحدّ اتهام الرزاق الحقيقي، ولا يبالي في سبيل الحصول على لقمة العيش أن تفوتَه الفرائضُ وتتعرضَ له المعاصي. وأما تلك التدريبات والتعليمات، فهي العبادة وفي مقدمتها الصلاة. وأما تلك الحرب فهي مجاهدة الإنسان نفسه وهواه، واجتنابه الخطايا ودنايا الأخلاق، ومقاومته شياطين الجن والإنس، إنقاذا

لقلبه وروحه معا من الهلاك الأبدي والخسران المبين. وأما تانك الوظيفتان الاثنتان، فإحداهما منحُ الحياة ورعايتها، والأخرى عبادةُ واهبِ الحياة ومربّيها والسؤال منه والتوكل عليه والاطمئنان إليه.

أجل، إن الذي وهب الحياة، وأنشأها صنعةً صمدانية معجزةً تتلمع، وجعلها حكمةً ربانية خارقة تتألّق، هو الذي يربيها، وهو وحده الذي يرعاها ويديمها بالرزق.

أوَ تريد الدليل؟! إن أضعفَ حيوان وأبلدَه ليُرزَقُ بأفضل رزق وأجودِه (كالأسماك وديدان الفواكه). وإن أعجز مخلوق وأرقّه ليأكل أحسن رزق وأطيبَه (كالأطفال والصغار).

ولكي تفهم أن وسيلة الرزق الحلال ليست الاقتدار والاختيار، بل هي العجزُ والضعف، يكفيك أن تعقِد مقارنة بين الأسماك البليدة والثعالب، وبين الصغار الذين لا قوة لهم والوحوش الكاسرة، وبين الأشجار المنتصبة والحيوانات اللاهثة.

فالذي يترك صلاته لأجل هموم العيش مَثَلُهُ كمثل ذلك الجندي الذي يترك تدريبَه وخندقَه ويتسوّل متسكعا في الأسواق. بينما الذي يقيم الصلاة دون أن ينسى نصيبَه

من الرزق، يبحث عنه في مطبخ رحمة الرزاق الكريم، لئلا يكون عالةً على الآخرين فجميل عملُه، بل هو رجولة وشهامة، وهو ضرب من العبادة أيضا.

ثم إن فطرةَ الإنسان وما أودع الله فيه من أجهزة معنوية تدلّان على أنه مخلوق للعبادة، لأن ما أودع فيه من قدرات وما يؤديه من عمل لحياته الدنيا لا تبلغُه مرتبةُ أدنى عصفور -الذي يتمتع بالحياة أكثرَ منه وأفضل- بينما يكون الإنسان سلطانَ الكائنات وسيدَ المخلوقات من حيث حياته المعنوية والأخروية بما أودع الله فيه من علمٍ به وافتقار إليه وقيام بعبادته.

فيا نفسي! إن كنتِ تجعلين الحياة الدنيا غايةَ المقصد وأفرغتِ في سبيلها جهدَك فسوف تكونين في حكم أصغر عصفور. أما إن كنت تجعلين الحياة الأخرى غاية المُنى وتتخذين هذه الحياة الدنيا وسيلةً لها ومزرعة، وسعيتِ لها سعيها، فسوف تكونين في حكم سيدِ الأحياء والعبدِ العزيز لدى خالقه الكريم وستصبحين الـضيفَ المكرَّم الفاضل في هذه الدنيا. فدونك طريقان اثنان، فاختاري أيّهما تشائين. واسألي الربَّ الرحيم الهدايةَ والتوفيق.

الكلمة السادسة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ (التوبة:١١١)

إذا أردتَ أن تعلم أنّ بيعَ النفس والمال إلى الله تعالى، والعبوديةَ له، والجنديةَ في سبيله أربحُ تجارة وأشرفُها، فأنصت إلى هذه الحكاية التمثيلية القصيرة:

وضع سلطان ذات يوم لدى اثنين من رعاياه وديعةً وأمانة، مزرعة واسعة لكلٍّ منهما، فيها كل ما تتطلبه من مكائنَ وآلاتٍ وأسلحة وحيوانات وغيرها. وتوافق أن كان الوقت آنذاك وقت حرب طاحنة، لا يقرّ قرار لشيء، فإما أن تبدّله الحربُ وتغيّره أو تجعلَه أثرا بعد عين. فأرسل السلطان رحمةً منه وفضلا أحدَ رجاله المقرّبين مصحوبا بأمره الكريم ليقول لهما:

«بيعوا لي ما لديكم من أمانتي لأحفظها لكم، فلا تذهب هباءً في هذا الوقت العصيب، وسأردّها لكم حالما

تضع الحربُ أوزارها، وسأوفي ثمنَها لكم غاليا، كأنّ تلك الأمانةَ ملكُكم، وستُشغّل تلك المكائن والآلات التي في حوزتكم الآن في معاملي وباسمي وعُهدتي، وسترتفع أثمانُها من الواحد إلى الألف، فضلا عن أن جميع الأرباح ستعود إليكم أيضا، وسأتعهّد عنكم بجميع تكاليفِها ومصاريفها، حيث إنكم عاجزون فقراء لا تتحملون مصاريف تلك المكائن. وسأردّ لكم جميع وارداتها ومنافعها، علما أني سأبقيها عندكم لتستفيدوا منها وتتمتعوا بها إلى أن يحين وقتُ أخذها. فلكم خمسُ مراتبَ من الأرباح في صفقة واحدة.

وإن لم تبيعوها لي فسيزول حتما كل ما لديكم، حيث ترون أن أحدا لا يستطيع أن يُمسك بما عنده، وستُحرَمون من تلك الأثمان الغالية، وستُهمَل تلك الآلات الدقيقة النفيسة والموازين الحساسة والمعادن الثمينة، وتفقد قيمتَها كلّيا، وذلك لعدم استعمالها في أعمال راقية، وستتحمّلون وحدَكم إدارتَها وتكاليفها وسترَون جزاء خيانتكم للأمانة. فتلك خمسُ خسائر في صفقة واحدة. وفوق هذا كله إنّ هذا البيع يعني أن البائع يصبح جنديا حرا أبيّا خاصا بي، يتصرف باسمي ولا يبقى أسيرا عاديا وشخصا سائبا.».

أنصت الرجلان مليا إلى هذا الكلام الجميل والأمر السلطاني الكريم. فقال العاقل الرزين منهما: «سمعا وطاعة لأمر السلطان، رضيتُ بالبيع بكل فخر وشكر». أما الآخر المغرور المتفرعن الغافل فقد ظن أن مزرعته لا تبيد أبدا، ولا تصيبها تقلبات الدهر واضطرابات الدنيا، فقال: «لا!.. ومَن السلطان؟ لا أبيع مُلكي ولا أفسد نشوتي!»

ودارت الأيام.. فأصبح الرجلُ الأول في مقام يغبطه الناسُ جميعا، إذ أضحى يعيش في بحبوحة قصر السلطان، يتنعّم بألطافه ويتقلب على أرائك أفضاله. أما الآخر فقد ابتُلي شرّ بلاءٍ حتى رثى لحاله الناسُ كلهم، رغم أنهم قالوا: «إنه يستحقها!» إذ هو الذي ورّط نفسَه في مرارة العذاب جزاءَ ما ارتكب من خطأ، فلا دامت له نشوتُه ولا دام له ملكُه.

فيا نفسي المغرورة! انظري من خلال منظار هذه الحكاية إلى وجه الحقيقة الناصعة. فالسلطان هو سلطان الأزل والأبد وهو ربّك وخالقك. وتلك المزرعة والمكائن والآلات والموازين هي ما تملكينه في الحياة الدنيا من جسم وروح وقلب، وما فيها من سمع وبصر وعقل وخيال، أي جميع الحواس الظاهرة والباطنة. وأما الرسول الكريم

فهو سيدنا محمد ﷺ. وأما الأمر السلطاني المحكَم فهو القرآن الكريم الذي يعلن هذا البيع والتجارة الرابحة في هذه الآية الكريمة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ وأما الميدان المضطرب والحرب المدمّرة فهي أحوالُ هذه الدنيا، إذ لا قرار فيها ولا ثبات، كلُّها تقلبات تلحّ على فكر الإنسان بهذا السؤال:

«إن جميع ما نملك لا يستقر ولا يبقى في أيدينا، بل يفنى ويغيب عنّا، أليس هناك من علاج لهذا؟ ألَا يمكن أن يحل البقاءُ بهذا الفناء؟!»

وبينما الإنسان غارق في هذا التفكير، إذا به يسمع صدى القرآن السماوي يدوّي في الآفاق ويقول له بتلك الآية الكريمة: نعم، إن هناك علاجا لهذا الداء، بل هو علاج لطيف فيه ربح عظيم في خمس مراتبَ.

سؤال: وما العلاج؟

الجواب: بيعُ الأمانة إلى مالكها الحقيقي. في هذا البيع خمسُ درجات من الربح في صفقة واحدة.

الربح الأول: المال الفاني يجد البقاءَ، لأن العمر الزائل الذي يوهَب للحي القيوم الباقي، ويُبذَل في سبيله سبحانه،

ينقلب عمرا أبديا باقيا. عندئذٍ تثمر دقائقُ العمر ثمارا يانعة وأزاهيرَ سعادة وضّاءة في عالم البقاء مثلما تفنى البذورُ ظاهرا وتنشق عنها الأزهارُ والسنابل.

الربح الثاني: الثمن هو الجنة.

الربح الثالث: يرتفع ثمنُ كل عضو وحاسة ويغلو من الواحدة إلى الألف.

فمثلا: العقلُ عضو وآلة، إن لم تَبعْه لله ولم تستعمله في سبيله، بل جعلتَه في سبيل الهوى والنفس، فإنه يتحول إلى عضو مشؤوم مزعج وعاجز، إذ يحمّلك آلامَ الماضي الحزينة وأهوالَ المستقبل المخيفة، فينحدر عندئذٍ إلى دركِ آلة ضارة مشؤومة. ألَا ترى كيف يهرب الفاسقُ من واقع حياته وينغمس في اللهو أو السُكر إنقاذا لنفسه من إزعاجات عقله؟ ولكن إذا بيع العقلُ إلى الله، واستُعمل في سبيله ولأجله، فإنه يكون مفتاحا رائعا بحيث يفتح ما لا يعدّ من خزائن الرحمة الإلهية وكنوز الحكمة الربانية. فأينما ينظر صاحبُه وكيفما يفكر يرى الحكمةَ الإلهية في كل شيء، وكلِّ موجود، وكلِّ حادثة. ويشاهد الرحمة الإلهية متجليةً على الوجود كله، فيرقى العقلُ بهذا إلى مرتبة مرشدٍ رباني يهيّئ صاحبَه للسعادة الخالدة.

ومثلا: العينُ حاسة، تطل الروحُ منها على هذا العالم، فإن لم تستعملها في سبيل الله، واستعملتها لأجل النفس والهوى، فإنها بمشاهدتها بعضَ المناظر الجميلة المؤقتة الزائلة تصبح في درْك الخادمة والسمسارة الدنيئة لإثارة شهوات النفس والهوى. ولكن إن بعثها إلى خالقها البصير واستعملتها فيما يُرضيه، عندئذٍ تكون العينُ مطالِعةً لكتاب الكون الكبير هذا وقارئةً له، ومشاهِدةً لمعجزات الصنعة الربانية في الوجود، وكأنها نحلة بين أزاهير الرحمة الإلهية في بستان الأرض، فتقطّر من شَهْد العبرة والمعرفة والمحبة نورَ الشهادةِ إلى القلب المؤمن.

ومثلا: إن لم تبع حاسةَ الذوق -التي في اللسان- إلى فاطرها الحكيم، واستعملتها لأجل المعدة والنفس، فحينئذٍ تهوي إلى درك بوّابٍ معمل المعدة واصطبلها، فتهبط قيمتُها. ولكن إن بعتَها إلى الرزاق الكريم، فإنها ترقى إلى درجة ناظرٍ ماهر لخزائن الرحمة الإلهية، ومفتّشٍ شاكر لمطابخ القدرة الصمدانية.

فيا أيها العقل! أفِق، أين الآلة المشؤومة من مفتاح كنوز الكائنات؟! ويا أيتها العين! أبصري جيدا، أين السمسرة الدنيئة من الإمعان في المكتبة الإلهية؟! ويا أيها اللسان!

ذق بحلاوة، أين بواب المعمل والاصطبل من ناظر خزينة الرحمة الإلهية؟!.

فإن شئت -يا أخي- فقِس بقية الأعضاء والحواس على هذا، وعندها تفهم أنّ المؤمنَ يكسب حقا خاصيةً تليق بالجنة، كما أن الكافر يكتسب ماهية توافق جهنم. فما جوزي كلّ منهما بهذا الجزاء العادل إلّا لأن المؤمن يستعمل بإيمانه أمانةَ خالقه سبحانه باسمه وضمن دائرة مرضاته، وأن الكافر يخون الأمانة فيستعملها لهواه ولنفسه الأمارة بالسوء.

الربح الرابع: إن الإنسان ضعيف بينما مصائبُه كثيرة، وهو فقير ولكن حاجته في ازدياد، وعاجز إلّا أن تكاليف عيشه مرهقة، فإن لم يتوكل هذا الإنسان على العلي القدير ولم يستند إليه، وإن لم يسلّم الأمرَ إليه ولم يطمئن به، فسيظل يقاسي في وجدانه آلاما دائمة، وتخنقُه حسراتُه وكَدحُه العقيم، فإما يحوّله إلى مجرم قذر أو سكّير عابث.

الربح الخامس: إنه من المتفق عليه إجماعا بين أهل الاختصاص والشهود والذوق والكشف، أن العبادات والأذكار والتسبيحات التي تقوم بها الأعضاءُ عندما تعمل

ضمن مرضاته سبحانه تتحول إلى ثمارٍ طيبة لذيذة من ثمار الجنة، وتُقدَّم إليك في وقت أنت في أمسِّ الحاجة إليها.

وهكذا، ففي هذه التجارة ربح عظيم فيه خمسُ مراتبَ من الأرباح، فإن لم تقم بها فستُحرَم من أرباحها جميعها، فضلا عن خسرانك خمسَ خسارات أخرى هي:

الخسارة الأولى: إنّ ما تحبّه من مال وأولاد، وما تعشَقه من هوى النفس، وما تعجَب به من حياة وشباب، سيضيع كلُّه ويزول، مخلّفا آثامَه وآلامَه مثقِلا بها ظهرَك.

الخسارة الثانية: ستنال عقاب من يخون الأمانة، لأنك باستعمالك أثمن الآلات والأعضاء في أخسّ الأعمال قد ظلمتَ نفسك.

الخسارة الثالثة: لقد افتريتَ وجنيتَ على الحكمة الإلهية، إذ أسقطتَ جميعَ تلك الأجهزة الإنسانية الراقية إلى دركات الأنعام بل أضلّ.

الخسارة الرابعة: ستدعو بالويل والثبور دائما، وستئنّ من صدمة الفراق والزوال ووطأة تكاليف الحياة التي أرهقتَ بها كاهلَك الضعيف مع أنّ فقرَك قائم وعجزَك دائم.

الخسارة الخامسة: إن هدايا الرحمن الجميلة -كالعقل والقلب والعين وما شابهها- ما وُهبتْ لك إلّا لتهيّئك لفتح

أبواب السعادة الأبدية، فما أعظمَها خسارةً أن تتحولَ تلك الهدايا إلى صورةٍ مؤلمة تفتح لك أبوابَ جهنم!

والآن.. سننظر إلى البيع نفسه. أهوَ ثقيل متعب حقا بحيث يهرب منه الكثيرون؟

كلا، ثم كلا.. فلا تعبَ فيه ولا ثقلَ أبدا. لأن دائرة الحلال واسعة فسيحة، تكفي للراحة والسعادة والسرور. فلا داعي للولوج في الحرام.

أما ما افترضه الله علينا فهو كذلك خفيف وضئيل. وإن العبودية لله بحد ذاتها شرف عظيم إذ هي جندية في سبيله سبحانه، وفيها من اللذة وراحة الوجدان ما لا يوصَف.

أما الواجب فهو أن تكون ذلك الجنديَّ، فتبدأ باسم الله، وتعملَ باسم الله، وتأخذ وتعطي في سبيله ولأجله، وتتحرك وتسكن ضمن دائرة مرضاته وأوامره، وإن كان هناك تقصير فدونك باب الاستغفار، فتضرّع إليه وقل:

اَللّهمَّ اغفِرْ لَنَا خَطَايَانَا، وَاقبَلنَا فِي عِبَادِكَ، وَاجعَلنَا أَمَنَاءَ عَلَى مَا أَمَّـنتَهُ عِندَنَا إِلَى يَومِ لِقَائِكَ.. آمِـينَ.

الكلمة السابعة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

آمَنتُ بِالله وَبِالْيَومِ الْآخِرِ

إن كنتَ ترغبُ أن تفهم كيف أن الإيمانَ بالله وباليوم الآخر، أثمنُ مفتاحَين يحلاّن لروح البشر طلسمَ الكون ولُغزَه، ويفتحان أمامها باب السعادة والهناء.. وكيف أن توكّل الإنسان على خالقه صابرا، والرجاءَ من رزّاقه شاكرا، أنفعُ علاجين ناجعين.. وأن الإنصاتَ إلى القرآن الكريم، والانقيادَ لحكمه، وأداء الصلوات وترك الكبائر، أغلى زاد للآخرة، وأسطعُ نور للقبر، وأيسرُ تذكرةِ مرور في رحلة الخلود.

أجل، إن كنتَ تريد أن تفهم هذه الأمورَ كلها؛ فأنصت معي إلى هذه الحكاية التمثيلية القصيرة:

وقع جندي -في الحرب العالمية- في مأزق عصيب ووضع محيّر، إذ أصبح جريحا بجرحين غائرين في يمينه وفي شماله. وخلفَه أسد هصور يوشك أن ينقضّ عليه.

وأمامَه مشنقة تُبيد جميع أحبته وتنتظره أيضا، زد على ذلك كانت أمامَه رحلةٌ نفي شاقة طويلة رغم وضعه الفظيع المؤلم!.. وبينما كان هذا المسكين المبتلى مستغرقا في تفكير يائس من واقعه المُفجع هذا، إذا برجل خيِّرٍ كأنه الخضر عليه السلام يتلألأ وجهُه نورا يظهر عن يمينه ويخاطبه:

«لا تيأس ولا تقنط. سأعلّمك طلسمين اثنين، إن أحسنتَ استعمالهما ينقلب ذلك الأسدُ فرسا أمينا مسخرا لخدمتك، وتتحول تلك المشنقةُ أرجوحة مريحة لطيفة تأنس بها، وسأناولك دواءين اثنين، إن أحسنت استعمالهما يصيّران جرحَيك المنتنين زهرتين شذّيتين، وسأزوّدك بتذكرة سفر تستطيع بها أن تقطع مسافةَ سنة كاملة في يوم واحد كأنك تطير. وإن لم تُصدّق بما أقول فجرّبه مرةً، وتيقَّن من صحته وصدقه».

فجرَّب الجندي شيئا منه، فرآه صدقا وصوابا.

نعم، وأنا كذلك -هذا المسكين «سعيد»- أصدّقه، لأنني جربتُه قليلا، فرأيته صدقا وحقا خالصا.

ثم، على حين غرة رأى رجلا لعوبا دسّاسا -كأنه الشيطان- يأتيه من جهة اليسار مع زينة فاخرة، وصور جذابة، ومُسْكِرات مغرية، ووقف قبالته يدعوه:

- إليّ إليّ أيها الصديق، أقبِل لِنَلْهُ معا ونستمتع بصوَر الحسناوات هذه، ونطرب بسماع هذه الألوان من الأغاني ونتلذذ بهذه المأكولات اللذيذة. ولكن يا هذا! ما هذه التمتمة التي ترددها؟!

- إنه طلسم ولغز!

- دع عنك هذا الشيء الغامض، فلا تعكّر صفو لذتنا، وأنسَ نشوتنا الحاضرة.. يا هذا.. وما ذلك بيدك؟

- إنه دواء!

- ارمِه بعيدا، إنك سالم صحيح ما بك شيء، ونحن في ساعة طرب وأنس ومتعة. وما هذه البطاقة ذات العلامات الخمس؟

- إنها تذكرة سفر، وأمر إداري للتوظيف!

- مزّقها، فلسنا بحاجة إلى سفر في هذا الربيع الزاهي!

وهكذا حاول بكل مكرٍ وخديعة أن يقنع الجندي، حتى بدأ ذلك المسكين يركَن شيئا قليلا إلى كلامه.

نعم، إن الإنسان ينخدع، ولقد خُدعتُ أنا كذلك لمثل هذا الماكر!

وفجأة دوّى صوت كالرعد عن يمينه يحذّره:

- إياك أن تنخدع! قل لذلك الماكر الخبيث:

- إن كنتَ تستطيع قتلَ الأسد الرابـض خلفي، وأن ترفع أعواد المشنقة من أمامي، وأن تبرأني من جرحَيّ الغائرين في يميني وشمالي، وأن تحول بيني وبين رحلتي الشاقة الطويلة.. نعم إن كنتَ تقدر على إيجاد سبيل لكل هذا فهيا أرنِيهِ، وهات ما لديك، ولك بعد ذلك أن تدعوني إلى اللهو والطرب، وإلّا فاسكت أيها الأبله، ليتكلم هذا الرجل السامي -الشبيه بالخضر- ليقول ما يروم.

فيا نفسي الباكية على ما ضحِكتْ أيام شبابها. اعلمي أن ذلك الجندي المسكين المتورط هو أنتِ، وهو الإنسان.. وأن ذلك الأسد هو الأجـل.. وأن أعواد المشنقة تلك هي الموت والزوال والفراق الذي تذوقُه كلُّ نفس.. ألَا تَرَين كيف يفارقنا كلُّ حبيب إثر حبيب ويودّعنا ليلَ نهار..؟ أما الجرحان العميقان، فأحدهما العجزُ البشري المزعج الذي لا حدّ له. والآخر هو الفقرُ الإنساني المؤلم الذي لا نهاية له. أما ذلك النفي والسفر المديد فهو رحلة الامتحان والابتلاء الطويلة لهذا الإنسان، التي تنطلق من عالم الأرواح مارةً من رَحِم الأم ومن الطفولة والصبا ثم من الشيخوخة ومن الدنيا ثم من القبر والبرزخ ومن الحشر والصراط.

وأما الطلسمان فهما الإيمان بالله وباليوم الآخر. نعم، إن الموت بهذا الطلسم القدسي يلبس صورةَ فرسٍ مسخّر بدلا عن الأسد، بل يتخذ صورةَ بُراق يُخرج الإنسانَ المؤمن من سجن الدنيا إلى روضة الجنان، إلى روضة الرحمن ذي الجلال. ومن هنا كان الكاملون من الناس يحبّون الموت ويطلبونه حيث رأوا حقيقتَه. ثم إن سير الزمان ومرورَه على كل شيء ونفوذَ الزوال والفراق والموت والوفاة فيه يتخذ بهذا الطلسم الإيماني صورةً وضّاءة حيث تحفّز الإنسانَ إلى رؤية الجِدَّة بتجدد كل شيء، بل يكون مبعثَ التأمل في ألوان مختلفة متنوعة وأنواع متباينة لمعجزات إبداع الخالق ذي الجلال وخوارق قدرته، وتجليات رحمته سبحانه ومشاهدتها باستمتاع وبهجة كاملين. بمثل ما يُضفي تبدُّلُ المرايا العاكسة لألوان نور الشمس، وتغيّر الصور في شاشة السينما من جمال وروعة إلى تكوّن المناظر الجذابة وتشكلها. أما ذانك العلاجان: فأحدهما التوكل على الله والتحلي بالصبر، أي الاستنادُ إلى قدرة الخالق الكريم والثقةُ بحكمته سبحانه.

- أهو كذلك؟

نعم، إنّ من يعتمد بهوّية «عجزه» على سلطان الكون الذي بيده أمر ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ كيف يجزع ويضطرب؟

بل يثبت أمام أشدّ المصائب، واثقا بالله ربه، مطمئنّ البال مرتـاحَ القلب وهو يردد:

﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴾ (البقرة: ١٥٦)

نعم، إن العارف بالله يتلذذ من عجزه وخوفه من الله سبحانه. وحقا إن في الخوف لذةً! فلو تمكنّا من الاستفسار من طفل له من العمر سنة واحدة مفترضين فيه العقلَ والكلام: «ما أطيب حالاتك وألـذّها؟» فربما يكـون جوابُه: «هو عندما ألوذ بصدر أمي الحنون بخوفي ورجائي وعجزي.». علما أن رحمةَ جميع الوالدات وحنانَهن ما هي إلاّ لمعةُ تجلٍّ من تجليات الرحمة الإلهية الواسعة.

ومن هنا وجَد الذين كَمُل إيمانُهم لذةً تفوق أية لذة كانت في العجز ومخافة الله، حتى إنهم تبرّؤوا إلى الله براءةً خالصة من حَولهم وقوتهم ولاذوا بعجزهم إليه تعالى واستعاذوا به وحده، مقدِّمين هذا العجز والخوف وسيلتين وشفيعين لهم عند البارئ الجليل.

أما العلاج الآخر فهو الدعاءُ والسؤال ثم القناعةُ بالعطاء، والشكرُ عليه والثقةُ برحمة الرزاق الرحيم.

- أهوَ هكذا ؟

نعم، إن من كان ضيفا لدى الذي فَرَش له وجه الأرض مائدةً حافلة بالنِعم، وجعل الربيعَ كأنه باقة أنيقة من الورود

ووضعها بجانب تلك المائدة العامرة بل نثَرها عليها..
إنّ مَن كان ضيفا عند هذا الجواد الكريم جلّ وعلا كيف يكون الفقر والحاجة لديه مؤلما وثقيلا؟ بل يتخذ فقرَه وفاقَته إليه سبحانه صورةَ مُشهًّ لتناول النِعم. فيسعى إلى الاستزادة من تلك الفاقة كمن يستزيد من شهيّته. وهنا يكمن سبب افتخار الكاملين واعتزازهم بالفقر إلى الله تعالى. «وإياك أن تظن خلاف ما نقصد بالفقر، إنه استشعار الإنسان بالفقر إليه سبحانه والتضرع إليه وحده والسؤال منه، وليس المقصود إظهار الفقر إلى الناس والتذلل لهم والسؤال منهم بالتسول والاستجداء!».

أما ذلك المستَنَد أو الأمر الإداري أو البطاقة فهو أداءُ الفرائض وفي مقدمتها الصلوات الخمس واجتناب الكبائر.

- أهوَ هكذا ؟

نعم، إن جميع أهل الاختصاص والشهود وجميع أهل الذوق والكشف من العلماء المدققين والأولياء الصالحين متفقون على أنّ زادَ طريق أبد الآباد، وذخيرةَ تلك الرحلة الطويلة المظلمة ونورَها وبُراقَها ليس إلاّ امتثال أوامر القرآن الكريم واجتناب نواهيه، وإلّا فلا يُغني العلمُ

والفلسفة والمهارة والحكمة شيئا في تلك الرحلة، بل تقف جميعُها منطفئةَ الأضواء عند باب القبر.

فيا نفسي الكسول! ما أخفّ أداء الصلوات الخمس واجتناب الكبائر السّبع وما أريَحَها وأيسرَها أمام عِظَم فوائدها وثمراتها وضرورتها! إن كنتِ فَطِنةً تفهمين ذلك. ألَا قولي لمن يدعوكِ إلى الفسق واللهو والسفاهة، وإلى ذلك الشيطان الخبيث الماكر:

لو كانت لديك وسيلة لقتل الموت، ولإزالة الزوال عن الدنيا، ولو كان عندك دواء لرفع العجز والفقر عن البشرية، ووساطة لغلق باب القبر إلى الأبد، فهاتها إذن وقُلْها لأسمع وأطيع.. وإلاّ فاخرس، فإن القرآن الكريم يتلو آيات الكائنات في مسجد الكون الكبير هذا. فلننصت إليه، ولنتنّور بنوره، ولنعمل بهديه الحكيم، حتى يكون لسانُنا رطبا بذكره وتلاوته.

نعم، إن الكلام كلامُه. فهو الحقُّ، وهو الذي يُظهر الحقيقةَ وينشر آيات نور الحكمة.

اَللّهمَّ نَوِّر قُلُوبَنَا بِنُورِ الْإيمَانِ وَالقُرآنِ. اَللهمَّ أغْنِنَا بِالْافتِقَارِ إلَيْكَ وَلَا تُفْقِرْنَا بِالْإِسْتِغنَاءِ عَنكَ، تَبرَّأْنَا إِلَيْكَ مِن حَولِنَا وَقُوَّتِنَا وَالْتَجَأْنَا إِلَى حَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ، فَاجْعَلْنَا مِنَ الْمُتَوَكِّلِينَ عَلَيْكَ، وَلَا تَكِلْنَا إِلَى أنفُسِنَا، وَاحْفَظْنَا بِحِفْظِكَ وَارْحَمْنَا وَارْحَم المُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ.

وَصَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَنَبِيِّكَ وَصَفِيِّكَ وَخَلِيلِكَ وَجَمَالِ مُلْكِكَ وَمَلِيكِ صُنعِكَ وَعَينِ عِنَايَتِكَ وَشَمْسِ هِدَايَتِكَ وَلِسَانِ محَبَّتِكَ وَمِثَالِ رَحمَتِكَ وَنُورِ خَلْقِكَ وَشَرَفِ مَوجُودَاتِكَ وَسِرَاجِ وَحْدَتِكَ فِي كَثْرَةِ مَخلُوقَاتِكَ وَكَاشِفِ طَلْسَمِ كَائِنَاتِكَ وَدَلّالِ سَلْطَنَةِ رُبُوبِيَّتِكَ وَمُبَلِّغِ مَرضِيَّاتِكَ وَمُعَرِّفِ كُنُوزِ أسْمَائِكَ وَمُعَلِّمِ عِبَادِكَ وَتَرجمَانِ آيَاتِكَ وَمِرآةِ جَمَالِ رُبُوبِيَّتِكَ وَمَدَارِ شُهُودِكَ وَإِشْهَادِكَ وَحَبِيبِكَ وَرَسُولِكَ الَّذِي أرْسَلْتَهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعِينَ وَعَلَى إخْوَانِهِ مِنَ النَّبِيينَ وَالْمُرْسَلِينَ وَعَلَى مَلَائِكَتِكَ الْمُقَرَّبِينَ وَعَلَى عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ.. آمِينَ.[١]

(١) هذه الأدعية الواردة في ختام أغلب «الكلمات» جاءت بالأصل باللغة العربية.

الكلمة الثامنة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ (البقرة:٢٥٥)

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ ﴾ (آل عمران:١٩)

إذا أردتَ أن تفهم ما الدنيا وما دورُ الروح الإنسانية فيها، وما قيمةُ الدين عند الإنسان، وكيف أنه لولا الدينُ الحق لتحولت الدنيا إلى سجن رهيب، وأن الشخصَ الملحد هو أشقى المخلوقات، وأن الذي يحل طلسمَ العالم ولغزَه المحيّر وينقذ الروحَ البشرية من الظلمات إن هو إلّا «يا الله».. «لا إله إلّا الله».. أجل، إذا كنتَ تريد أن تفهم كل ذلك، فأنصت إلى هذه الحكاية التمثيلية القصيرة وتفكّر فيها مليا:

كان شقيقان في قديم الزمان يذهبان معا إلى سياحة طويلة. فواصلا سيرَهما سوية إلى أن وصلا إلى مفرق طريقين، فرأيا هناك رجلا وقورا فسألاه: «أيُّ الطريقين أفضل؟». فأجابهما: «في الطريق اليمين التزام إجباري

للقانون والنظام، إلّا أن في ثنايا ذلك التكليف ثمةَ أمان وسعادة. أما طريقُ الشمال ففيه الحرية والتحررُ إلّا أن في ثنايا تلك الحرية تهلُكة وشقاء. والآن لكم الخيار في سلوك أيهما».

وبعد الاستماع إلى هذا الكلام سلكَ الأخ ذو الطبع الطيب طريق اليمين قائلا «توكلت على الله»، وانطلق راضيا عن طيب نفسٍ باتباع النظامِ والانتظام. أما الأخُ الآخر الغاوي، فقد رجّح طريقَ الشمال لمجرّد هوى التحرر الذي فيه.

والآن فلنتابع خيالا هذا الرجل السائر في طريقٍ ظاهرُه السهولةُ والخفة وباطنُه من قِبَله الثقلُ والعناء. فما أن عبَر الوديان العميقة والمرتفعات العالية الوعِرة حتى دخل وسط مفازةٍ خالية وصحراءٍ موحشة. فسمع صوتا مخيفا، ورأى أن أسدا ضخما غضوبا قد انطلق من الأحراش نحوه. ففرّ منه فرارا وهو يرتعد خوفا وهلعا، فصادف بئرا معطّلة على عمق ستين ذراعا، فألقى نفسه فيها طلبا للنجاة. وفي أثناء السقوط لَقيتْ يداه شجرةً فتشبّث بها. وكان لهذه الشجرة جَذران نبتا على جدار البئر وقد سُلّط عليهما فأران، أبيضُ وأسودُ وهما يقضمان ذينك

الجذرين بأسنانِهما الحادة. فنظر إلى الأعلى فرأى الأسدَ واقفا كالحارس على فوهة البئر، ونظر إلى الأسفل فرأى ثعبانا كبيرا جدا قد رفع رأسه يريد الاقتراب منه وهو على مسافة ثلاثين ذراعا، وله فم واسع سعةَ البئر نفسِها. ورأى ثمةَ حشرات مؤذية لاسعة تحيط به. نظر إلى أعلى الشجرة فرأى أنها شجرةُ تين، إلّا أنها تُثمِر بصورة خارقة أنواعا مختلفة وكثيرة من فواكه الأشجار ابتداءً من الجوز وانتهاءً إلى الرمان.

لم يكن هذا الرجل ليفهمَ -لسوء إدراكه وحماقته- بأن هذا الأمر ليس اعتياديا، ولا يمكن أن تأتي كل هذه الأشياء مصادفةً ومن دون قصد. ولم يكن يفهم أنّ في هذه الشؤون العجيبة أسرارا غريبةً، وأن هناك وراء كل ذلك مَن يدبّر هذه الأمور ويُسيّرها.

فبينما يبكي قلبُ هذا الرجل وتصرخ روحُه ويحار عقلُه من أوضاعه الأليمة إذا بنفسه الأمّارة بالسوء أخذتْ تلتهم فواكهَ تلك الشجرة متجاهلةً عما حولها وكأن شيئا لم يحدث، سادّةً أذنيها عن صرخاتِ القلب وهواتفِ الروح، خادعةً نفسها بنفسها رغم أن قسما من تلك الفواكه كانت مسمومةً ومضرةً.

وهكذا نرى أن هذا الرجل الشقي قد عومِل بمثل ما جاء في الحديث القدسي «**أنَـا عِندَ ظَنِّ عَبْدِي بِي**»[1] أي أنا أعامل عبدي مثلما يعرفني هو. فلقد عومل هكذا، وسيُعامل مثلها أيضا، بل لابد أن يرى مثلَ هذه المعاملة جزاءَ تلقّيه كلَّ ما يشاهده أمرا عاديا بلا قصدٍ ولا حكمة وكأنه الحقُّ بعينه. وذلك لسوء ظنِه وبلاهته الخرقاء، فصار يتقلّب في نار العذاب ولا يستطيع أن يموت لينجوَ ولا يقدِر على العيش الكريم. ونحن بدورنا سنرجع تاركين وراءنا ذلك المشؤومَ يتلوّى في عذابه لنعرِفَ ما جرى للأخ الآخر من أحوال.

فهذا الرجل المبارك ذو العقل الرشيد ما يزال يقطع الطريق دون أن يُعاني الـضيقَ كأخيه، ذلك لأنه لا يفكّر إلّا في الأشياء الجميلة -لِما له من جمال الخُلُق- ولا يأخذ بعِنان الخيال إلّا بما هو جميل ولطيف. لذا كان يستأنس بنفسه ولا يلاقي الصعوبة والمشقة كأخيه. ذلك لأنه يعرف النظامَ، ويعمل بمقتضى الولاء والاتباع. فيرى الأمور تسهُل له، ويمضي حرا منطلقا مستظلا بالأمان والاستقرار. وهكذا مضى حتى وجَد بستانا فيه أزهار جميلة

(١) البخاري، التوحيد ١٥،٣٥؛ مسلم، الذكر ٢، ١٩، التوبة ١؛ الترمذي، الزهد ٥١، الدعوات ١٣١؛ ابن ماجه، الأدب ٥٨.

وفواكهُ لطيفة وثمةَ جُثثُ حيواناتٍ وأشياء منتنة مبعثرة هنا وهناك بسبب إهمال النظافة.

كان أخوه الشقيُّ قد دخل -من قبلُ- في مثل هذا البستان أيضا غير أنه انشغل بمشاهدة الجِيَف الميتة وإنعام النظر فيها مما أشعرَه بالغَثَيان والدُّوار، فغادره دون أن يأخذ قسطا من الراحة لمواصلة السير. أما هذا الأخ فعملا بقاعدة «انظر إلى الأحسن من كل شيء» فقد أهمل الجيَف ولم يلتفت إليها مطلقا، بل استفاد مما في البستان من الأشياء والفواكه. وبعدَما استراح فيه الراحة التامة مضى إلى سبيله.

ودخل -هو أيضا كأخيه- في صحراء عظيمة ومفازة واسعة. وفجأة سَمِع صوتَ أسد يهجم عليه فخاف إلّا أنه دون خوف أخيه، حيث فكّر بحُسن ظنِّه وجمالِ تفكيره قائلا: «لابد أن لهذه الصحراء حاكما، فهذا الأسدُ إذن يُحتَمل أن يكون خادما أمينا تحت إمرته..». فوجد في ذلك اطمئنانا، غير أنه فرّ كذلك حتى وصل وجها لوجه إلى بئر معطّلة بعمق ستين ذراعا فألقى نفسه فيها وأمسك -كصاحبه- بشجرةٍ في منتصف الطريق من البئر وبقي معلقا بها. فرأى حيوانين اثنين يقطعان جَذرَي تلك

الشجرة رويدا رويدا. فنظر إلى الأعلى فرأى الأسد، ونظر إلى الأسفل فرأى ثعبانا ضخما، ونظر إلى نفسه فوجدها -كأخيه تماما- في وضع عجيب غريب. فدهش من الأمر هو كذلك، إلّا أنه دون دهشة أخيه بألف مرة، لِما منَحه الله من حُسن الخلُق وحُسن التفكيرِ والفكر الجميلِ الذي لا يُريهِ إلّا الجهةَ الجميلة من الأشياء. ولهذا السبب فقد فكّر هكذا: «إن هذه الأمورَ العجيبة ذاتُ علاقات مترابطة بعضها ببعض، وإنّها لَتظهر كأن آمرا واحدا يحرّكها. فلابد إذن أن يكون في هذه الأعمال المحيّرة سرّ مغلق وطلسم غيرُ مكشوف.

أجل، إن كل هذا يَرجِع إلى أوامرِ حاكم خفيٍّ، فأنا إذن لستُ وحيدا، بل إن ذلك الحاكمَ الخفي ينظر إليّ ويرعاني ويختبرني، ولحكمةٍ مقصودة يسوقني إلى مكان، ويدعوني إليه.»

فنشأ لديه من هذا التفكيرِ الجميل والخوفِ اللذيذ شوق أثارَ هذا السؤال: «مَن يكون يا تُرى هذا الذي يجرّبني ويريد أن يعرّفني نفسَه ؟ ومَن هذا الذي يسوقني في هذا الطريق العجيب إلى غاية هادفة ؟». ثم نشأ من الشوق إلى التعرف محبةُ صاحب الطلسم، ونمتْ

من تلك المحبة رغبةُ حل الطلسم، ومن تلك الرغبة انبثقتْ رغبةُ اتخاذ وضعٍ جميل وحالةٍ مقبولة لدى صاحب الطلسم حسب ما يحبه ويرضاه.

ثم نظر أعلى الشجرة فرأى أنها شجرةُ تين، غير أن في نهاية أغصانها آلافَ الأنواع من الأثمار والفواكه، وعندها ذهب خوفُه وزال نهائيا، لأنه علِم علما قاطعا بأن شجرة التين هذه إنما هي فهرس ومعرِض، حيث قَلَّد الحاكمُ الخفي نماذجَ ما في بستانه وجنّاته بشكل معجز عليها وزيّنها بها، إشارةً لما أعدّه من أطعمة ولذائذَ لضيوفه.. وإلّا فإن شجرة واحدة لن تعطي أثمارَ آلاف الأشجار. فلَم يرَ أمامَه إلّا الدعاءَ والتضرع، فألَحّ متوسلا بانكسار إلى أن أُلْهِم مفتاحَ الطلسم فهتف قائلا: «يا حاكمَ هذه الديار والآفاق! ألتجئ إليك وأتوسل وأتـضرع، فأنا لك خادم، أريد رضاك وأنا أطلُبك وأبحث عنك..!».

فانشقّ جدارُ البئر فجأة بعد هذا الدعاء، عن بابٍ يُفتح إلى بستان فاخر طاهر جميل، وربما انقلب فمُ ذلك الثعبان إلى ذلك الباب، واتخذ كلّ من الأسد والثعبان صورةَ الخادم وهيأته. فأخذا يدعوانه إلى البستان حتى إن ذلك الأسد تقمّص شكل حصان مسخّر بين يديه.

فيا نفسي الكسلى! ويا صاحبي في الخيال! تعاليا لنوازن بين أوضاع هذين الأخَوين كي نعلم كيف أن الحسنةَ تجلُب الحسنة وأن السيئة تأتي بالسيئة. إن المسافر الشقي إلى جهة الشمال معرّض في كل آن أن يلجَ فم الثعبان فهو يرتجف خوفا وهلعا. بينما هذا السعيد يُدعى إلى بستان أنيق بهيج مثمر بفواكهَ شتى. وإن قلب ذلك الشقي يتمزق في خوف عظيم ورُعب أليم، بينما هذا السعيد يرى غرائبَ الأشياء وينظر إليها بعبرة حلوةٍ وخوفٍ لذيذ ومعرفة محبوبة. وإن ذلك الشقي المسكين ليُعاني من الوحشة واليأس واليُتم عذابا وأيّ عذاب! بينما هذا السعيد يتلذذ في الأنس ويترقّل في الأمل والشوق.

ثم إن ذلك المنكود يرى نفسه محكوما عليه -كالسجين- بهجمات الحشرات المؤذية، بينما هذا السعيد المحظوظ يتمتع متعةَ ضيفٍ عزيز. وكيف لا وهو ضيف عند مضيِّفٍ كريم، فيستأنس مع عجائب خَدَمِه. ثم إن ذلك السيءَ الحظِّ ليُعجّل عذابه في النار بأكله مأكولات لذيذة الطعم ظاهرا ومسمومة حقيقةً ومعنىً، إذ إن تلك الفواكه ما هي إلّا نماذج، قد أذِن للتذوق منها فحسب، ليكون طالبا لحقائقها وأصولها ويكونَ شاريها الأصيل، وإلّا فلا سماح

للشراهة منها كالحيوان. أما هذا السعيد المحمود فإنه يتذوق منها إذ يعي الأمرَ، مؤخِّرا أكلَها وملتذا بالانتظار.

ثم إن ذلك الشقي يكون قد ظلم نفسه بنفسه، جارًّا عليها وضعا مظلما وأوهاما ذات ظلمات حتى كأنه في جحيم، بانعدام بصيرته عن حقائقَ ساطعة كالنهار وأوضاعٍ جميلة باهرة، فلا هو مستحق للشفقة ولا له حقُّ الشكوى. مَثَله في هذا مثل رجل وسط أحبّائه في موسم الصيف وفي حديقة جميلة بهيجة في وليمة طيبة للأفراح، فلعدم قناعته بها راح يرتشف كؤوسَ الخمر -أمّ الخبائث- حتى أصبح سكيرا ثملا، فشرع بالصراخ والعويل، وبدأ بالبكاء، ظانا نفسه أنه في قلب الشتاء القارس، ومتصورا أنه جائع وعارٍ وسط وحوشٍ مفترسة. فمثلما أن هذا الرجل لا يستحق الشفقة والرأفة، إذ ظلم نفسَه بنفسه متوهما أصدقاءه وحوشا، محتقرا لهم.. فكذلك هذا المشؤوم.

ولكنما ذلك السعيد يبصر الحقيقة، والحقيقة بذاتها جميلة. ومع إدراك جمال الحقيقة فإنه يحترم كمال صاحب الحقيقة ويوقّره فيستحق رحمتَه.

فاعلم إذن سرا من أسرار: ﴿ مَآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ ﴾ (النساء:٧٩).

فلو وازنتَ سائر هذه الفروق وأمثالها لعلمتَ أن النفس الأمارة للأول قد أحضرت له جهنمَ معنوية، بينما الآخر قد نال -بحُسن نيته وحُسن ظنه وحُسن خصلته وحُسن فكره- الفيض والسعادة والإحسان العميم.

فيا نفسي، ويا أيها الرجل المنصت معي إلى هذه الحكاية! إذا كنت تريد أن لا تكون مثل ذلك الأخ المشؤوم، وترغب في أن تكون كالأخ السعيد فاستمع إلى القرآن الكريم وارضخ لحُكمه واعتصم به واعمل بأحكامه.

وإذا كنت قد وَعَيت ما في هذه الأقصوصة التمثيلية من حقائق، فإنك تستطيع أن تطبّق عليها الحقيقة الدينية والدنيوية والإنسانية والإيمانية كلَّها. وسأقول لك الأسس، واستخرج بنفسك الدقائق!

فالأخَوان الاثنان: أحدهما روحُ المؤمن وقلب الصالح، والآخر روح الكافر وقلب الفاسق. أما اليمينُ من تلكما الطريقين فهو طريق القرآن وطريق الإيمان، وأما الشمالُ فطريق العصيان والكفران. وأما ذلك البستان في الطريق فهو الحياة الاجتماعية المؤقتة للمجتمع البشري والحضارة الإنسانية التي يوجد فيها الخيرُ والشرُّ والطيب والخبيث والطاهر والقذر معا. فالعاقل هو مَن يعمل على قاعدة

«خذ ما صفا.. دع ما كدر» فيسير مع سلامة القلب واطمئنان الوجدان. وأما تلك الصحراء فهي هذه الدنيا وهذه الأرض. وأما ذلك الأسد فهو الأجَل والموت. وأما تلك البئر فهي جسدُ الإنسان وزمانُ الحياة. وأما ذلك العمق البالغ ستين ذراعا فهو إشارة إلى العمر الغالب، وهو معدل العمر «ستون سنة». وأما تلك الشجرة فهي مدةُ العمر ومادة الحياة. وأما الحيوانان الاثنان، الأسود والأبيض فهما الليلُ والنهار. وأما ذلك الثعبان فهو فمُ القبر المفتوح إلى طريق البرزخ ورُواق الآخرة، إلّا أن ذلك الفم هو للمؤمن بابُ يفتح من السجن إلى البستان.

وأما تلك الحشرات المضرة فهي المصائب الدنيوية، إلّا أنها للمؤمن في حُكم الإيقاظات الإلهية الحلوة والالتفاتات الرحمانية لئلا يغفُل. وأما مطعومات تلك الشجرة فهي النِعمُ الدنيوية التي صنَعها ربُّ العزة الكريم لكي تكون فهرسا للنعم الأخروية ومذكِّرة بها، بمشابهتها لها، وقد خلَقها البارئُ الحكيم على هيئة نماذج لدعوة الزبائن إلى فواكه الجنة، وإن إعطاء تلك الشجرة على وحدتها الفواكهَ المختلفة المتباينة إشارة إلى آية الصمدانية وختمِ الربوبية الإلهية وطغراءِ سلطنة الألوهية. ذلك لأن «صنعَ كلِّ شيءٍ

من شيءٍ واحد» أي صنعَ جميع النباتات وأثمارها من تراب واحد، وخلقَ جميع الحيوانات من ماء واحد، وإبداعَ جميع الأجهزة الحيوانية من طعام بسيط. وكذا «صُنع الشيء الواحد من كل شيء» كبناء لحم معين وجلد بسيط لذي حياة من مطعومات مختلفة الأجناس.. إنما هي الآية الخاصة للذات الأحدية الصمدية والختم المخصوص للسلطان الأزلي الأبدي وطغراؤه التي لا يمكن تقليدها أبدا.

نعم، إن خلقَ شيءٍ من كلِّ شيء وخلقَ كلَّ شيء من شيء، إنما هو خاصية تعود إلى خالق كل شيء، وعلامة مخصوصة للقادر على كل شيء.

وأما ذلك الطلسم فهو سر حكمة الخلق الذي يُفتح بسر الإيمان. وأما ذلك المفتاح فهو ﴿ **ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ** ﴾ و«**يا الله**» و«**لا إله إلَّا الله..**». وأما انقلاب فمِ ذلك الثعبان إلى باب البستان فهو رمز إلى أن القبر هو سجن الوحشة والنسيان والإهمال والضيق. فهو كبطن الثعبان لأهل الضلالة والطغيان، ولكنه لأهل الإيمان والقرآن باب مفتوح على مصراعيه من سجن الدنيا إلى بستان البقاء، ومن ميدان الامتحان إلى روضة الجنان، ومن زحمة الحياة إلى رحمة الرحمن.

وأما انقلاب ذلك الأسد المفترس إلى حصان مسخر وإلى خادم مؤنس فهو إشارة إلى أن الموت لأهل الـضلال فراق أبدي أليم من جميع الأحبة، وخروج من جنة دنيوية كاذبة إلى وحشة سجن انفرادي للقبر، وضياع في تيهٍ سحيق، بينما هو لأهل الهداية وأهل القرآن رحلة إلى العالم الآخر، ووسيلة إلى ملاقاة الأحبة والأصدقاء القدامى، وواسطة إلى دخول الوطن الحقيقي ومنازل السعادة الأبدية، ودعوة كريمة من سجن الدنيا إلى بساتين الجنان، وانتظار لأخذ الأجرة للخدمات تفضّلا من الرحمن الرحيم، وتسريح من تكاليف الحياة وإجازة من وظيفتها، وإعلانُ الانتهاء من واجبات العبودية وامتحانات التعليم والتعليمات.

نحصل من هذا كله: أن كل من يجعل الحياة الفانية مبتغاه فسيكون في جهنم حقيقة ومعنى، حتى لو كان يتقلب ظاهرا في بحبوحة النعيم. وأن كل من كان متوجها إلى الحياة الباقية ويسعى لها بجدّ وإخلاص فهو فائز بسعادة الدارين وأهل لهما معا حتى لو كانت دنياه سيئة وضيقة، إلّا أنه سيراها حلوةً طيبة، وسيراها قاعةَ انتظار لجنته، فيتحملها ويشكر ربه فيها وهو يخوض غمار الصبر.

اللّهم اجعلنا من أهل السعادة والسلامة والقرآن والإيمان آمين

اَللّهمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ بِعَدَدِ جَمِيعِ الْحُرُوفَاتِ الْمُتَشَكِّلَةِ فِي جَمِيعِ الْكَلِمَاتِ الْمُتَمَثِّلَةِ بِإِذْنِ الرَّحْمَنِ فِي مَرَايَا تَمَوُّجَاتِ الْهَوَاءِ عِنْدَ قِرَاءَةِ كُلِّ كَلِمَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ مِن كُلِّ قَارِئٍ مِن أَوَّلِ النُّـزُولِ إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ. وَارْحَمْنَا وَوَالِدِينَا وَارحَم الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِعَدَدِهَا بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَم الرَّاحِمِينَ، آمِينَ وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

الكلمة التاسعة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾

أيها الأخ! تسألني عن حكمةِ تخصيصِ الصلاة في هذه الأوقات الخمسة المعينة، فسنشير إلى حكمةٍ واحدة فقط من بين حِكَمها الوفيرة.

نعم، كما أن وقت كل صلاة بدايةُ انقلابٍ زمني عظيم ومهم، فهو كذلك مرآة لتصرُّف إلهيّ عظيم، تعكِس الآلاء الإلهية الكلية في ذلك الوقت. لهذا فقد أمر في تلك الأوقات بالصلاة، أي الزيادةِ من التسبيح والتعظيم للقدير ذي الجلال، والإكثارِ من الحمد والشكر لنِعَمه التي لا تُحصى والتي تجمّعت بين الوقتين. ولأجل فهمِ بعضٍ من هذا المعنى العميق الدقيق، ينبغي الإصغاء -مع نفسي- إلى خمس نكات.[1]

---

(١) النكتة: هي مسألة لطيفة أخرجت بدقة نظر وإمعان فكر، وسُميت المسألة الدقيقة نكتة لتأثير الخواطر في استنباطها. التعريفات للجرجاني.

النكتة الأولى

إن معنى الصلاة هو التسبيحُ والتعظيم والشكر لله تعالى، أي تقديسُه جلّ وعلا تجاه جلالِه قولا وفعلا بقول: «**سبحان الله**»، وتعظيمُه تجاه كماله لفظا وعملا بقول: «**الله أكبـر**»، وشكرُه تجاه جماله قلبا ولسانا وجسما بقول: «**الحمد لله**».

أي إن التسبيح والتكبير والتحميد هو بمثابة نوى الصلاة وبذورها، فوُجِدتْ هذه الثلاثة في جميع حركات الصلاة وأذكارها. ولهـذا أيضا تُكرَّر هذه الكلمات الطيبة الثلاث ثلاثا وثلاثين مرة عقِبَ الصلاة، وذلك للتأكيد على معنى الصلاة وترسيخه، إذ بهذه الكلمات الموجزة المُجمَلة يؤكَّد معنى الصلاة ومغزاها.

النكتة الثانية

إن معنى العبادة هو سجودُ العبد بمحبةٍ خالصة وبتقدير وإعجاب في الحضرة الإلهية وأمامَ كمال الربوبية والقدرة الصمدانية والرحمة الإلهية مُشاهِدا في نفسه تقصيرَه وعجزَه وفقرَه.

نعم، كما أن سلطنة الربوبية تتطلب العبوديةَ والطاعة،

فإن قُدسيتَها ونـزاهتها تتطلب أيضا أن يُعلن العبدُ -مع استغفاره برؤية تقصيره- أن ربَّه منـزّه عن أي نقص، وأنه مُتعالٍ على جميع أفكار أهل الضلالة الباطلة، وأنه مقدّس من جميع تقصيرات الكائنات ونقائصها، أي أن يعلنَ ذلك كلَّه بتسبيحه بقوله: «**سبحان الله**».

وكذا قدرة الربوبية الكاملة تتطلب من العبد أيضا أن يلتجئ إليها، ويتوكل عليها لرؤيته ضعفَ نفسه الشديد وعجزَ المخلوقات قائلا «**الله أكبر**» بإعجاب وتقدير واستحسان تجاه عظمة آثار القدرة الصمدانية، ماضيا إلى الركوع بكل خضوع وخشوع.

وكذا رحمة الربوبية الواسعة تتطلب أيضا أن يُظهر العبدُ حاجاته الخاصة وحاجات جميع المخلوقات وفقرَها بلسان السؤال والدعاء، وأن يعلن إحسان ربِّه وآلاءه العميمة بالشكر والثناء والحمد بقوله «**الحمد لله**».

أي إن أفعال الصلاة وأقوالَها تتضمن هذه المعاني. ولأجل هذه المعاني فُرضت الصلاةُ من لدنه سبحانه وتعالى.

النكتة الثالثة

كما أن الإنسان هو مثال مصغّر لهذا العالم الكبير، وأن سورة الفاتحة مثال منوّر للقرآن العظيم، فالصلاةُ

كذلك فهرس نوراني شامل لجميع العبادات، وخريطة سامية تشير إلى أنماط عبادات المخلوقات جميعا.

النكتة الرابعة

إن عقارب الساعة التي تَعدُّ الثواني والدقائقَ والساعاتِ والأيامَ، كل منها يناظر الآخر، ويمثّل الآخر، ويأخذ كل منها حكمَ الآخر.

كذلك في عالم الدنيا الذي هو ساعة إلهية كبرى، فإن دورانَ الليل والنهار الذي هو بِحُكم الثواني للساعة، والسنواتِ التي تعدّ الدقائق، وطبقات عمر الإنسان التي تعد الساعات، وأدوارَ عمر العالم التي تعد الأيام، كلّ منها يناظر الآخر، ويتشابه معه، ويماثله، ويذكّر كل منها الآخر، ويأخذ حُكمه. **فمثلا:**

وقت الفجر إلى طلوع الشمس: يشبه ويذكّر ببداية الربيع وأوله، وبأوان سقوط الإنسان في رحم الأم، وباليوم الأول من الأيام الستة في خلق السموات والأرض، فينبّه الإنسانَ إلى ما في تلك الأوقات من الشؤون الإلهية العظيمة.

أما وقت الظهر: فهو يشبه ويشير إلى منتصف الصيف، وإلى عنفوان الشباب، وإلى فترة خلق الإنسان في عمر الدنيا، ويذكّر ما في ذلك كلّه من تجليات الرحمة وفيوضات النعمة.

أما وقت العصر: فهو يشبه موسمَ الخريف، وزمنَ الشيخوخة، وعصر السعادة الذي هو عصر خاتم الرسل محمد عليه الصلاة والسلام، ويذكّر بها في ذلك كله من الشؤون الإلهية والآلاء الرحمانية.

أما وقت المغرب: فإنه يذكّر بغروب أغلب المخلوقات وأفولها نهاية الخريف، ويذكّر أيضا بوفاة الإنسان، وبدمار الدنيا عند قيام الساعة، ومع ذلك فهو يعلّم التجليات الجلالية، ويوقظ الإنسان من نوم الغفلة وينبهه.

أما وقت العشاء: فيذكّر بغَشَيان عالم الظلام وسَتره آثارَ عالم النهار بكَفنه الأسود، ويذكّر أيضا بتغطية الكفن الأبيض للشتاء وجه الأرض الميتة، وبوفاة حتى آثار الإنسان المتوفى ودخولها تحت ستار النسيان، وبانسداد أبواب دار امتحان الدنيا نهائيا، ويعلن في ذلك كله تصرفات جلالية للقهار ذي الجلال.

أما وقت الليل: فإنه يذكّر بالشتاء، وبالقبر، وبعالم البرزخ، فضلا عن أنه يذكّر روح الإنسان بمدى حاجتها إلى رحمة الرحمن.

أما التهجد في الليل: فإنه يذكّر بضرورته ضياءً لليل القبر، ولظلمات عالم البرزخ، وينبّه ويذكّر بنِعم غير متناهية

للمنعم الحقيقي عَبر هذه الانقلابات، ويعلن أيضا عن مدى أهلية المنعم الحقيقي للحمد والثناء.

أما الصباح الثاني: فإنه يذكّر بصباح الحشر. نعم، كما أن مجيء الصبح لهذا الليل، ومجيء الربيع لهذا الشتاء معقول وضروري وحتمي، فإن مجيء صباح الحشر وربيع البرزخ هما بالقطعية والثبوت نفسيهما.

فكل وقت إذن -من هذه الأوقات الخمسة- بداية انقلابٍ عظيم، ويذكّر بانقلابات أخرى عظيمة، فهو يذكّر أيضا بمعجزات القدرة الصمدانية وهدايا الرحمة الإلهية، سواء منها السنوية أو العصرية أو الدهرية، بإشارات تصرفاتها اليومية العظيمة.

أي إن الصلاة المفروضة التي هي وظيفةُ الفطرة وأساسُ العبودية والدَّين المفروض، لائقة جدا ومناسِبة جدا في أن تكون في هذه الأوقات حقا.

النكتة الخامسة

إن الإنسان بفطرته ضعيف جدا، ومع ذلك فما أكثر المنغّصات التي تُورثه الحزنَ والألم. وهو في الوقت نفسه عاجز جدا، مع أن أعداءه ومصائبه كثيرة جدا. وهو فقير

جدا مع أن حاجاته كثيرة وشديدة. وهو كسول وبلا اقتدار مع أن تكاليف الحياة ثقيلة عليه. وإنسانيتُه جعلته يرتبط بالكون جميعا مع أن فراقَ ما يحبه وزوال ما يستأنس به يؤلمانه، وعقلُه يُريه مقاصدَ سامية وثمارا باقية، مع أن يده قصيرة، وعمره قصير، وقدرته محدودة وصبره محدود.

فروح الإنسان في هذه الحالة: (**في وقت الفجر**) أحوج ما تكون إلى أن تطرقَ -بالدعاء والصلاة- بابَ القدير ذي الجلال، وباب الرحيم ذي الجمال، عارضةً حالها أمامه، سائلة التوفيق والعون منه سبحانه. وما أشدَّ افتقارَ تلك الروح إلى نقطة استناد كي تتحمل ما سيأتي أمامها من أعمال، وما ستحمل على كاهلها من وظائف في عالم النهار الذي يعقبه. ألا يُفهم ذلك بداهةً؟

وعند وقت الظهر ذلك الوقت الذي هو ذروة كمال النهار وميلانُه إلى الزوال، وهو أوان تكامل الأعمال اليومية، وفترة استراحة موقتة من عناء المشاغل.. وهو وقت حاجة الروح إلى التنفس والاسترواح مما تعطيه هذه الدنيا الفانية والأشغال المرهقة الموقتة من غفلةٍ وحيرةٍ واضطراب فضلا عن أنه أوان تظاهر الآلاء الإلهية.

فخلاصُ روح الإنسان من تلك المضايقات، وانسلالها من تلك الغفلة والحيرة، وخروجها من تلك الأمور التافهة

الزائلة، لا يكون إلّا بالالتجاء إلى باب القيوم الباقي -وهو المنعم الحقيقي- بالتضرع والتوسل أمامه مكتوف اليدين شاكرا حامدا لمحصّلة نِعَمه المتجمعة، مستعينا به وحده، مع إظهار العجز أمام جلاله وعظمته بالركوع، وإعلان الذل والخضوع -بإعجاب وتعظيم وهيام- بالسجود أمام كماله الذي لا يزول، وأمام جماله الذي لا يحول. وهذا هو أداء صلاة الظهر، فما أجمَلها، وما ألَذَّها، وما أجدرها، وما أعظم ضرورَتها! ومن ثم فلا يحسبنّ الإنسان نفسه إنسانا إن كان لا يفهم هذا.

وعند وقت العصر الذي يذكّر بالموسم الحزين للخريف، وبالحالة المحزنة للشيخوخة، وبالأيام الأليمة لآخر الزمان، وبوقت ظهور نتائج الأعمال اليومية، فهو فترة حصول المجموع الكلي الهائل للنعم الإلهية، أمثال التمتع بالصحة والتنعم بالعافية، والقيام بخدمات طيبة. وهو كذلك وقت الإعلان بأن الإنسان ضيف مأمور، وبأن كل شيء يزول، وهو بلا ثبات ولا قرار، وذلك بما يشير إليه انحناء الشمس الـضخمة إلى الأفول.

نعم إن روح الإنسان التي تنشُد الأبديةَ والخلود، وهي التي خُلقت للبقاء والأبد، وتعشق الإحسان، وتتألم

من الفراق، تُنهض بهذا الإنسان ليقومَ وقت العصر ويُسبغ الوضوء لأداء صلاة العصر، ليُناجي متضرعا أمام باب الحضرة الصمدانية للقديم الباقي وللقيوم السرمدي، وليلتجئ إلى فضل رحمته الواسعة، وليقدم الشكر والحمد على نعمه التي لا تحصى، فيركع بكل ذلٍّ وخضوع أمام عزة ربوبيته سبحانه ويهوي إلى السجود بكل تواضع وفناء أمام سرمدية ألوهيته، ويجد السلوان الحقيقي والراحة التامة لروحه بوقوفه بعبودية تامة وباستعداد كامل أمام عظمة كبريائه جل وعلا. فما أسماها من وظيفةٍ تأديةُ صلاة العصر بهذا المعنى! وما ألْيَقها من خدمة! بل ما أحقَّه من وقتٍ لقضاء دَين الفطرة، وما أعظمَه من فوزٍ للسعادة في منتهى اللذة! فمن كان إنسانا حقا فسيفهم هذا.

وعند وقت المغرب الذي يذكّر بوقت غروب المخلوقات اللطيفة الجميلة لعالم الصيف والخريف في خزينة الودائع منذ ابتداء الشتاء، ويذكّر بوقت دخول الإنسان القبرَ عند وفاته وفراقه الأليم لجميع أحبته، وبوفاة الدنيا كلها بزلزلة سكراتها وانتقال ساكنيها جميعا إلى عوالم أخرى.

ويذكّر كذلك بانطفاء مصباح دار الامتحان هذه. فهو وقت إيقاظ قوي وإنذار شديد لأولئك الذين يعشقون

لحدّ العبادة المحبوبات التي تغرب وراء أفق الزوال. لذا فالإنسان الذي يملك روحا صافية كالمرآة المجلوة المشتاقة فطرةً إلى تجليات الجمال الباقي، لأجل أداء صلاة المغرب في مثل هذا الوقت يولّي وجهه إلى عرش عظمة مَن هو قديم لم يزل، ومن هو باقٍ لا يزال، ومَن هو يدبر أمر هذه العوالم الجسيمة ويبدّلها، فيدوّي بصوته قائلا: «**الله أكبر**» فوق رؤوس هذه المخلوقات الفانية، مُطلقا يده منها، مكتوفا في خدمة مولاه الحق منتصبا قائما عند مَن هو دائم باقٍ جل وعلا ليقول: «**الحمد لله**» أمام كماله الذي لا نقص فيه، وأمام جماله الذي لا مثيل له، واقفا أمامه مُثنيا رحمته الواسعة ليقول: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .. ليعرض عبوديته واستعانته تجاه ربوبية مولاه التي لا معين لها وتجاه ألوهيته التي لا شريك لها، وتجاه سلطنته التي لا وزير لها.

فيركع إظهارا لعجزه وضعفه وفقره مع الكائنات جميعا أمام كبريائه سبحانه التي لا منتهى لها، وأمام قدرته التي لا حدّ لها، وأمام عزته التي لا عجز فيها، مسبحا ربّه العظيم قائلا: «**سبحان ربي العظيم**». ثم يهوي إلى السجود أمام جمال ذاته الذي لا يزول، وأمام صفاته المقدسة

التي لا تتغير، وأمام كمال سرمديته الذي لا يتبدل، مُعلنا بذلك حبَّه وعبوديته في إعجاب وفناء وذلٍ، تاركا ما سواه سبحانه قائلا: «**سبحان ربي الأعلى**» واجدا جميلا باقيا ورحيما سرمديا بدلا من كل فانٍ. فيقدس ربَّه الأعلى المنـزه عن الزوال المبرأ من التقصير ويجلس للتشهد، فيقدّم التحيات والصلوات الطيبات لجميع المخلوقات هديةً باسمه إلى ذلك الجميل الذي لم يزل وإلى ذلك الجليل الذي لا يزال، مجددا بيعتَه مع رسوله الأكرم بالسلام عليه مُظهرا بها طاعته لأوامره، فيرى الانتظام الحكيم لقصر الكائنات هذا، ويُشهِدُه على وحدانية الصانع ذي الجلال، فيجدّد إيمانه وينوّره، ثم يشهد على دلّال الربوبية ومبلّغ مرضياتها وترجمان آيات كتاب الكون الكبير ألا وهو محمد العربي ﷺ.

فما ألطفَ وما أنـزَه أداء صلاة المغرب وما أجلَّها من مهمة -بهذا المضمون- وما أعزَّها وأحلاها من وظيفة، وما أجمَلها وألذّها من عبودية، وما أعظمَها من حقيقة أصيلة! وهكذا نرى كيف أنها صُحبة كريمة وجلسة مباركة وسعادة خالدة في مثل هذه الـضيافة الفانية.. أفيحسب مَن لم يفهم هذا نفسه إنسانا؟!

وعند وقت العشاء ذلك الوقت الذي تغيب في الأفق حتى تلك البقية الباقية من آثار النهار، ويخيّم الليل فيه على العالم، فيذكّر بالتصرفات الربانية لـ«مقلّب الليل والنهار» وهو القدير ذو الجلال في قلبه تلك الصحيفة البيضاء إلى هذه الصحيفة السوداء. ويذكّر كذلك بالإجراءات الإلـهية لـ«مسخّر الشمس والقمر» وهو الحكيم ذو الكمال في قلبه الصحيفة الخضراء المزيّنة للصيف إلى الصحيفة البيضاء الباردة للشتاء. ويذكّر كذلك بالشؤون الإلهية لـ«خالق الموت والحياة» بانقطاع الآثار الباقية -بمرور الزمن- لأهل القبور من هذه الدنيا وانتقالها كليا إلى عالم آخر. فهو وقت يذكّر بالتصرفات الجلالية، وبالتجليات الجمالية لخالق الأرض والسموات، وبانكشاف عالم الآخرة الواسع الفسيح الخالد العظيم، وبموت الدنيا الضيقة الفانية الحقيرة، ودمارها دمارا تاما بسكراتها الهائلة. إنها فترة -أو حالة- تُثبت أن المالك الحقيقي لهذا الكون بل المعبود الحقيقي والمحبوب الحقيقي فيه لا يمكن أن يكون إلاّ مَن يستطيع أن يقلّب الليل والنهار والشتاء والصيف والدنيا والآخرة بسهولة كسهولة تقليب صفحات الكتاب، فيكتب ويُثبت ويمحو ويبدّل، وليس هذا إلّا شأن القدير المطلق النافذ حكمُه على الجميع جلّ جلاله.

وهكذا فروح البشر التي هي في منتهى العجز وفي غاية الفقر والحاجة، والتي هي في حيرة من ظلمات المستقبل وفي وَجَل مما تخفيه الأيام والليالي.. تدفع الإنسان عند أدائه لصلاة العشاء -بهذا المضمون- أن لا يتردد في أن يردد على غرار سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾ (الأنعام: ٧٦). فيلتجئ بالصلاة إلى باب مَن هو المعبود الذي لم يزل ومَن هو المحبوب الذي لا يزال، مناجيا ذلك الباقي السرمدي في هذه الدنيا الفانية، وفي هذا العالم الفانـي، وفي هذه الحياة المظلمة والمسـتقبل المظلم، لينشر على أرجاء دنياه النور من خلال صحبة خاطفةٍ ومناجاة موقتة، ولينوّر مستقبله ويضمد جراح الزوال والفراق عما يحبّه من أشياء وموجودات ومن أشخاص وأصدقاء وأحباب، بمشاهدة توجّه رحمةِ الرحمن الرحيم، وطلب نور هدايته. فينسى -بدوره- تلك الدنيا التي أنسَته، والتي اختفت وراء العشاء، فيسكب عبرات قلبه، ولوعة صدره، على عتبة باب تلك الرحمة، ليقوم بوظيفة عبوديته النهائية قبل الدخول فيما هو مجهول العاقبة، ولا يعرف ما يُفعل به بعده، من نوم شبيه بالموت، وليختم دفتر أعماله اليومية بحسن الخاتمة.

ولأجل ذلك كله يقوم بأداء الصلاة، فيتشرف بالمثول أمام مَن هو المعبود المحبوب الباقي بدلا من المحبوبات

الفانية، وينتصب قائما أمام مَن هو القدير الكريم بدلا من جميع العجزة المتسولين، وليسمو بالمثول في حضرة مَن هو الحفيظ الرحيم لينجو من شر من يرتعد منهم من المخلوقات الـضارة. فيستهلّ الصلاة بالفاتحة، أي بالمدح والثناء لرب العالمين الكريم الرحيم الذي هو الكامل المطلق والغني المطلق، بدلا من مدح مخلوقات لا طائل وراءها وغير جديرة بالمدح وهي ناقصة وفقيرة وبدلا من البقاء تحت ذلّ المنّة والأذى. فيرقى إلى مقام الضيف الكريم في هذا الكون، وإلى مقام الموظف المرموق فيه رغم أنه ضئيل وصغير بل هو معدوم. وذلك بسموّه إلى مرتبة خطاب ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي انتسابه لمالك يوم الدين ولسلطان الأزل والأبد. فيقدّم بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ عبادات واستعانات الجماعة الكبرى والمجتمع الأعظم لجميع المخلوقات طالبا الهداية إلى الصراط المستقيم الذي هو طريقه المنوّر الموصل إلى السعادة الأبدية عبر ظلمات المستقبل بقوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ ويتفكر في كبريائه سبحانه وتعالى ويتأمل في أن هذه الشموس المستترة -التي هي كالنباتات والحيوانات النائمة الآن- وهذه النجوم المنتبهة، جنود

مطيعة مسخّرة لأمره جل وعلا، وأن كل واحد منها ما هو إلا مصباح في دار ضيافته هذه، وكل واحد منها خادم عامل. فيكبّر قائلا: «**الله أكبر**» ليبلُغَ الركوع.

ثم يتأمل بالسجدة الكبرى لجميع المخلوقات كيف أن أنواع الموجودات في كل سنة، وفي كل عصر -كالمخلوقات النائمة في هذا الليل- بل حتى الأرض نفسها وحتى العالم كله، إنما هو كالجيش المنظم، بل كالجندي المطيع، وعندما تسرّح الدنيا من وظيفتها الدنيوية بأمر: ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ أي عندما تُرسل إلى عالم الغيب تسجد في منتهى النظام في الزوال على سجادة الغروب مكبّرة: «**الله أكبر**». وهي تُبعث وتُحشر كذلك في الربيع بنفسها أو بمثلها، بصيحة إحياء وإيقاظ صادر من أمر ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ فيتأهب الجميع في خضوع وخشوع لأمر مولاهم الحق. فهذا الإنسان الـضعيف اقتداءً بتلك المخلوقات، يهوي إلى السجود أمام ديوان الرحمن ذي الكمال والرحيم ذي الجمال قائلا: «**الله أكبر**» في حبٍّ غامرٍ بالإعجاب وفي فنائيةٍ مفعمة بالبقاء وفي ذلّ مكلّلٍ بالعز.

فلا شك يا أخي أن قد فهمت أن أداء صلاة العشاء سموّ وصعود فيما يشبه المعراج. وما أجمَلها من وظيفةٍ

وما أحلاها من واجبٍ وما أسماها من خدمةٍ وما أعزّها وألذّها من عبودية وما أليَقها من حقيقة أصيلة! أيْ أن كل وقت من هذه الأوقات إشارات لانقلاب زمني عظيم، وأمارات لإجراءات ربانية جسيمة، وعلامات لإنعامات إلهية كلية. لذا فإن تخصيص صلاة الفرض -التي هي دَين الفطرة- في تلك الأوقات هو منتهى الحكمة.

﴿ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

اَللّهمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى مَن أرْسَلْتَهُ مُعَلِّما لِعِبَادِكَ، لِيُعَلِّمَهُم كَيفِيَّة مَعْرِفَتكَ وَالْعُبُودِيَّة لَكَ، وَمُعَرِّفا بِكُنُوزِ أسْمَائِكَ، وَتَرجمَانا لِآيَاتِ كِتَابِ كَائِنَاتِكَ، وَمِرآةً بِعُبُودِيَّتِهِ لِجَمَالِ رُبُوبِيَّتِكَ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعِينَ

وَارْحَمْنَا وَارحَم الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ،

آمِينَ بِرَحْمَتِكَ يَا أرْحَمَ الرَّاحِمِينَ

الكلمة الحادية والعشرون

عبارة عن مقامين

المقام الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَـٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ﴾

(النساء:١٠٣)

قال لي أحدهم يوما وهو كبير سنا وجسما ورتبة: «إنّ أداء الصلاة حسن وجميل، ولكن تكرارها كل يوم، وفي خمسة أوقات كثير جدا فكثرتها هذه تجعلها مملّة!..»

وبعد مرور فترة طويلة على هذا القول، أصغيت إلى نفسي فإذا هي أيضا تردد الكلام نفسه!! فتأملت فيها مليّا، وإذا بها قد أخذت -بطريق الكسل- الدرسَ نفسَه من الشيطان، فعلمتُ عندئذ أنّ ذلك الرجل كأنه قد نطقَ بتلك الكلمات بلسان جميع النفوس الأمارة بالسوء، أو أُنطق هكذا. فقلت ما دامت نفسي التي بين جنبيّ أمّارة بالسوء

فلابد أن أبدأ بها أولا لأنّ مَن عجز عن إصلاح نفسه فهو عن غيرها أعجزُ، فخاطبتها:

يا نفسي!.. اسمعيها مني «خمس تنبيهات» مقابل ما تفوهتِ به وأنتِ منغمسة في الجهل المركب سادرة في نوم الغفلة على فراش الكسل.

التنبيه الأول

يا نفسي الشقية! هل إنّ عمركِ أبديّ؟ وهل عندك عهد قطعي بالبقاء إلى السنة المقبلة بل إلى الغد؟ فالذي جعلكِ تملّين وتسأمين من تكرار الصلاة هو توهمكِ الأبدية والخلود، فتظهرين الدلال وكأنك بترفك مخلّدة في هذه الدنيا. فإن كنت تفهمين أنّ عمركِ قصير، وأنّه يمضي هباء دون فائدة، فلا ريب أنّ صرف جزء من أربعةٍ وعشرين منه في أداء خدمة جميلة ووظيفة مريحة لطيفة، وهي رحمة لك ووسيلة لحياة سعيدة خالدة، لا يكون مدعاة إلى الملل والسأم، بل وسيلة مثيرة لشوق خالص ولذوقٍ رائع رفيع.

التنبيه الثاني

يا نفسي الشرهة! إنكِ يوميا تأكلين الخبز، وتشربين الماء، وتتنفسين الهواء، أمَا يورث هذا التكرار مللا وضجرا؟ كلا دون شك! لأنّ تكرارَ الحاجة لا يجلب الملل بل يجدّد اللذة.

لهذا فالصلاة التي تجلب الغذاء لقلبي، وماء الحياة لروحي، ونسيم الهواء لِلّطيفة الربانية الكامنة في جسمي، لابد أنّها لا تجعلك تملّين ولا تسأمين أبدا.

نعم، إنّ القلب المتعرض لأحزان وآلام لا حدّ لها، المفتونَ بآمال ولذائذ لا نهاية لها، لا يمكنه أن يكسب قوةً ولا غذاء إلّا بطرق باب الرحيم الكريم، القادر على كل شيء بكل تضرع وتوسل.

وإنّ الروح المتعلقة بأغلب الموجودات الآتية والراحلة سريعا في هذه الدنيا الفانية، لا تشرب ماء الحياة إلّا بالتوجه بالصلاة إلى ينبوع رحمة المعبود الباقي والمحبوب السرمدي.

وإن السر الإنساني الشاعر الرقيق اللطيف، وهو اللطيفة الربانية النورانية، والمخلوق للخلود، والمشتاق له فطرةً والمرآة العاكسة لتجليات الذات الجليلة، لابد أنّه محتاج أشدَّ الحاجة إلى التنفس، في زحمةِ وقساوة وضغوط هذه الأحوال الدنيوية الساحقة الخانقة العابرة المظلمة، وليس له ذلك إلّا بالاستنشاق من نافذة الصلاة.

التنبيه الثالث

يا نفسي الجزعة! إنّكِ تضطربين اليوم من تذكر عناء العبادات التي قمت بها في الأيام الماضية، ومن صعوبات

الصلاة وزحمة المصائب السابقة، ثم تتفكرين في واجبات العبادات في الأيام المقبلة وخدمات أداء الصلوات، وآلام المصائب، فتظهرين الجزع، وقلة الصبر ونفاده. هل هذا أمر يصدر ممّن له مِسْكة من عقل؟

إنّ مثلكِ في عدم الصبر هذا مثلُ ذلك القائد الأحمق الذي وجَّه قوةً عظيمة من جيشه إلى الجناح الأيمن للعدو، في الوقت الذي التحق ذلك الجناح من صفوف العدو إلى صفّه، فأصبح له ظهيرا. ووجّه قوته الباقية إلى الجناح الأيسر للعدو، في الوقت الذي لم يكن هناك أحد من الجنود. فأدرك العدو نقطة ضعفه فسدد هجومَه إلى القلب فدمّره هو وجيشَه تدميرا كاملا.

نعم، إنكِ تشبهين هذا القائد الطائش، لأنّ صعوباتِ الأيام الماضية وأتعابها قد ولّت، فذهبت آلامُها وظلت لذّتها وانقلبت مشقتها ثوابا، لذا لا تولّد مللا بل شوقا جديدا وذوقا نديّا وسعيا جادا دائما للمضيّ والإقدام. أمّا الأيام المقبلة، فلأنها لم تأتِ بعدُ، فإنّ صرف التفكير فيها من الآن نوع من الحماقة والبلهِ، إذ يشبه ذلك البكاءُ والصراخ من الآن، لما قد يحتمل أن يكون من العطش والجوع في المستقبل!..

فما دام الأمر هكذا، فإن كان لك شيء من العقل، ففكري من حيث العبادة في هذا اليوم بالذات. قولي سأصرف ساعة منه في واجبٍ مهم لذيذ جميل، وفي خدمةٍ سامية رفيعة ذات أجر عظيم وكلفة ضئيلة. وعندها تشعرين أنّ فتورَك المؤلم قد تحوّل إلى همة حلوة، ونشاط لذيذ.

فيا نفسي الفارغة من الصبر! إنّكِ مكلفة بثلاثة أنواع من الصبر.

الأول: الصبر على الطاعة.

الثاني: الصبر عن المعصية.

الثالث: الصبر عند البلاء.

فإن كنتِ فطنة فخذي الحقيقة الجلية في مثال القائد -في هذا التنبيه- عبرةً ودليلا، وقولي بكل همة ورجولة «يا صبور!» ثم خذي على عاتقك الأنواع الثلاثة من الصبر. واستندي إلى قوة الصبر المودعة فيك وتجمّلي بها، فإنّها تكفي للمشقات كلها، وللمصائب جميعها ما لم تبعثريها خطأً في أمور جانبية.

التنبيه الرابع

يا نفسي الطائشة! يا تُرى هل أنّ أداء هذه العبودية دون نتيجة وجدوى؟! وهل أنّ أجرتها قليلة ضئيلة حتى تجعلك

تسأمين منها؟ مع أنّ أحدنا يعمل إلى المساء ويكدّ دون فتور إن رغّبه أحد في مالٍ أو أرهبَهُ.

إنّ الصلاة التي هي قوت لقلبك العاجز الفقير وسكينة له في هذا المضيف الموقت وهو الدنيا. وهي غذاء وضياء لمنـزلك الذي لابد أنّكِ صائرة إليه، وهو القبر. وهي عهد وبراءة في محكمتك التي لا شك أنكِ تحشرين إليها. وهي التي ستكون نورا وبُراقا على الصراط المستقيم الذي لابد أنّكِ سائرة عليه.. فصلاة هذه نتائجها، هل هي بلا نتيجة وجدوى ؟ أمْ أنها زهيدة الأجرة ؟!

وإذا وَعَدَكِ أحد بهدية مقدارها مائة ليرة، فسوف يستخدمك مائة يوم وأنتِ تسعَين وتعملين معتمدة على وعده دون ملل وفتور، رغم أنّه قد يخلف الوعد. فكيف بمن وعدك وهو لا يخلف الوعد مطلقا ؟؟ فخُلف الوعد عنده محال! وعدك أجرةً وثمنا هي الجنة، وهدية عظيمة هي السعادة الخالدة، لتؤدي له واجبا ووظيفة لطيفة مريحة وفي فترة قصيرة جدا. ألا تفكرين في أنكِ إن لم تؤدِّ تلك الوظيفة والخدمة الضئيلة، أو قمتِ بها دون رغبة أو بشكلٍ متقطع، فإنكِ إذن تستخفّين بهديته، وتتهمينه في وعده! ألا تستحقين إذن تأديبا شديدا وتعذيبا أليما ؟ ألا يثير همتك

لتؤدي تلك الوظيفة التي هي في غاية اليسر واللطف خوفَ السجن الأبدي وهو جهنم. علما أنّكِ تقومين بأعمال مرهقة وصعبة دون فتور خوفا من سجن الدنيا، وأين هذا من سجن جهنم الأبدي ؟!

التنبيه الخامس

يا نفسي المغرمة بالدنيا!.. هل إنّ فتورك في العبادة وتقصيرك في الصلاة ناشئان من كثرة مشاغلك الدنيوية؟ أمْ إنّك لا تجدين الفرصة لغلبة هموم العيش؟!

فيا عجبا هل أنتِ مخلوقة للدنيا فحسب، حتى تبذلي كل وقتك لها؟ تأملي، إنّك لا تبلغين أصغرَ عصفور من حيث القدرة على تدارك لوازم الحياة الدنيا رغم أنّكِ أرقى من جميع الحيوانات فطرةً. لِمَ لا تفهمين من هذا أنّ وظيفتكِ الأصلية ليس الانهماك بالحياة الدنيا والاهتمام بها كالحيوانات، وإنّما السعيُ والدأب لحياة خالدة كالإنسان الحقيقي. مع هذا، فإنّ أغلبَ ما تذكرينه من المشاغل الدنيوية هي مشاغل ما لا يعنيك من الأمور، وهي التي تتدخلين فيها بفضول، فتهدرين وقتك الثمين جدا فيما لا قيمة له ولا ضرورة ولا فائدة منه، كتعلّم عدد الدجاج

في أمريكا! أو نوع الحلقات حول زحل. وكأنّكِ تكسبين بهذا شيئا من الفَلك والإحصاء! فتَدَعين الضروري والأهم والألزم من الأمور كأنكِ ستعمّرين آلاف السنين؟!

فإن قلت: إنّ الذي يصرفني ويفترني عن الصلاة والعبادة ليس مثل هذه الأمور التافهة، وإنّما هي أمور ضرورية لمطالب العيش. إذن فاسمعي مني هذا المثل:

إن كانت الأجرة اليومية لشخصٍ مائة قرش وقال له أحدهم: «تعال واحفرْ لعشر دقائق هذا المكان، فإنّك ستجد حجرا كريما كالزمرد قيمتُه مائة ليرة» كم يكون عذرا تافها بل جنونا إنْ رفض ذلك بقوله: «لا، لا أعملُ، لأن أجرتي اليومية ستنقص».

وكذلك حالك، فإن تركت الصلاة المفروضة، فإنّ جميع ثمار سعيك وعملك في هذا البستان ستنحصر في نفقةٍ دنيوية تافهة دون أن تجنى فائدتها وبركتها. بينما لو صرفت وقت راحتك بين فترات العمل في أداء الصلاة، التي هي وسيلة لراحة الروح، ولتنفس القلب، يضاف عندئذٍ إلى نفقتك الأخروية وزاد آخرتك مع نفقتك الدنيوية المباركة، ما تجدينه من منبع عظيم لكنـزَين معنويين دائمين وهما:

الكنز الأول: ستأخذ[1] حظك ونصيبك من «تسبيحات» كل ما هيأته بنيّة خالصة، من أزهار وثمار ونباتات في بستانك.

الكنـز الثاني: أنّ كل مَن يأكل من محاصيل بستانك -سواء أكان حيوانا أمْ إنسانا شاريا أو سارقا- يكون بحكم «صدقةٍ جارية» لك، فيما إذا نظرت إلى نفسك كأنّك وكيل وموظف لتوزيع مال الله سبحانه وتعالى على مخلوقاته، أي تتصرف باسم الرزاق الحقيقي وضمن مرضاته.

والآن تأمّلْ في الذي ترك الصلاة، كم هو خاسر خسرانا عظيما؟! وكم هو فاقد من تلك الثروة الهائلة؟! وكيف أنّه سيبقى محروما ومفلسا من ذينك الكنـزين الدائمين اللذين يمدان الإنسان بقوة معنوية للعمل ويشوّقانه للسعي والنشاط؟! حتى إذا بلغ أرذلَ عمره، فإنّه سوف يملّ ويضجر مخاطبا نفسه: «وما عليّ؟! لِمَ أتعِبُ نفسي؟ لأجلِ مَن أعمَلُ؟ فإنّني راحل من هذه الدنيا غدا» فيلقي نفسه في أحضان الكسل؛ بينما الرجل الأول يقول: «سأسْعى سعيا حثيثا في العمل الحلال بجانب عبادتي المتزايدة كيما أرسل إلى قبري ضياءا أكثر وادّخر لآخرتي ذخيرة أزيد».

---

(١) هذا المقام درس لأحد العاملين في بستان. (المؤلف)

والخلاصة: اعلمي أيتها النفس! إنّ أمْس قد فاتكِ. أمّا الغد فلم يأتِ بَعْدُ، وليس لديك عهد أنّك ستملكينه، لهذا فاحسبي عمرك الحقيقي هو هذا اليوم. وأقلّ القليل أن تلقي ساعة منه في صندوق الادّخار الأخروي، وهو المسجد أو السَّجّادة لتضمني المستقبل الحقيقي الخالد.

واعلمي كذلك أن كل يوم جديد هو باب ينفتح لعالم جديد -لك ولغيرك- فإن لم تؤدي فيه الصلاة فإن عالم ذلك اليوم يرحل إلى عالم الغيب مُظلما شاكيا محزونا، وسيشهد عليك. وأنّ لكلٍّ منا عالمَه الخاص من ذلك العالم، وأنّ نوعيته تتبع عملنا وقلبنا. مَثلُه في ذلك مثلُ المرآة، تظهر فيها الصورة تبعا للونها ونوعيتها. فإن كانت مسودّة فستظهر الصورة مسودّة، وإن كانت صقيلة فستظهر الصورة واضحة، وإلا فستظهر مشوهة تضخم أتفه شيء وأصغره. كذلك أنت، فبقلبك وبعقلك وبعملك يمكنك أن تغيري صورَ عالمكِ، وباختيارك وطوع إرادتك يمكنك أن تجعلي ذلك العالم يشهد لك أو عليك.

وهكذا إن أدّيتَ الصلاة وتوجهت بصلاتك إلى خالق ذلك العالم ذي الجلال، فسيتنور ذلك العالم المتوجه إليك حالا، وكأنّك قد فتحت بنيّة الصلاة مفتاح النور فأضاءَه

مصباح صلاتك، وبدّد الظلمات فيه. وعندها تتحول وتتبدل جميع الاضطرابات والأحزان التي حولك في الدنيا فتراها نظاما حكيما، وكتابة ذات معنى بقلم القدرة الربانية، فينساب نور من أنوار ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ إلى قلبك، فيتنور عالم يومك ذاك، وسيشهد بنورانيته لك عند الله.

فيا أخي! حذارِ أن تقول «أين صلاتي من حقيقة تلك الصلاة؟» إذ كما تحمل نواةُ التمر في طياتها صفات النخلة الباسقة، الفرق فقط في التفاصيل والإجمال. كذلك صلاة العوام -من هم أمثالي وأمثالُك- فيها حظ من ذلك النور وسر من أسرار تلك الحقيقة، كما هي في صلاة وليّ من أولياء الله الصالحين ولو لم يتعلق بذلك شعوره. أمّا تَنوُّرها فهي بدرجات متفاوتة، كتفاوت المراتب الكثيرة التي بين نواة التمر إلى النخلة. ورغم أنّ الصلاة فيها مراتب أكثر فإنّ جميع تلك المراتب فيها أساس من تلك الحقيقة النورانية.

اَللّٰهمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى مَن قَالَ: «الصَّلَاةُ عِمَادُ الدِّينِ»[1] وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

---

(١) تقدم تخريجه في الكلمة الرابعة.

المقام الثاني

من الكلمة الحادية والعشرين

يتضمن خمسة مراهم لخمسة جروح قلبية



﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ (المؤمنون:٩٧-٩٨)

أيُّها الأخ المبتلى بداء الوسوسة! ليت شعري هل تعلم بماذا تشبه وسوستُك؟. إنها أشبه بالمصيبة؛ تبدأ صغيرة ثم تكبر شيئا فشيئا على مدى اهتمامك بها. وبقدر إهمالك إياها تزول وتفنى، فهي تعظُم إذا استعظمتَها وتصغُر إذا استصغرتَها. وإذا ما خفتَ منها داستك ودوّختك بالعلل، وإن لم تَخَفْ هانَتْ وخَنَسَتْ وتوارت. وإن لم تعرف حقيقتَها استمرت واستقرت، بينما إذا عرفتَ حقيقتها وسَبَرتَ غورها تلاشت واضمحلت. فما دام الأمر هكذا فسأشرح لك خمسة وجوه، من وجوهها التي تحدُث كثيرا. عسى أن يكون بيانُها -بعون الله- شفاءً لصدورنا

نحن كلنا. ذلك لأنّ الجهل مجلبة للوساوس، بينما العلمُ على نقيضه دافع لشرها. فلو جهلتَها أقبلت ودنتْ وإذا ما عرفتها ولّت وأدبرت.

الوجه الأول - الجرح الأول

أنّ الشيطان يلقى أولا بشبهته في القلب، ثم يراقب صداها في الأعماق، فإذا أنكرها القلبُ انقلب من الشبهة إلى الشتم والسبّ، فيصوّر أمام الخيال ما يشبه الشتم من قبيح الخواطر السيئة والهواجس المنافية للآداب، مما يجعل ذلك القلب المسكين يئن تحت وطأة اليأس ويصرخ: واحسرتاه!. وامصيبتاه!.. فيظن الموسوَس أنّ قلبه آثم، وأنه قد اقترف السيئات حيال ربه الكريم، ويشعر باضطراب وانفعال وقلق، فينفلت من عقال السكينة والطمأنينة، ويحاول الانغماس في أغوار الغفلة.

أمّا ضِماد هذا الجرحِ فهو:

أيها المبتلى المسكين! لا تخف ولا تضطرب، لأنّ ما مرّ أمام مرآة ذهنك ليس شتما ولا سبّا، وإنّما هو مجردُ صوَرٍ وخيالات تمر مرورا أمام مرآة ذهنك، وحيث إنّ تخيُّلَ الكفر ليس كفرا، فإنّ تخيُّل الشتم أيضا ليس شتما، إذ من المعلوم في البديهية المنطقية: أنّ التخيُّل ليس بحُكم،

بينما الشتم حُكم. فضلا عن هذا، فإنّ تلك الكلمات غير اللائقة لم تكن قد صدرت من ذات قلبك، حيث إنّ قلبك يتحسّر منها ويتألم. ولعلها آتية من لمّة شيطانية قريبة من القلب. لذا فإن ضرر الوسوسة إنما هو في توهم الضرر، أي إنّ ضرره على القلب هو ما نتوهمُه نحن من أضرارها. لأنّ المرء يتوهم تخيلا لا أساس له كأنّه حقيقة، ثم ينسب إليه من أعمال الشيطان ما هو بريء منه، فيظن أنّ همزات الشيطان هي من خواطر قلبه هو، ويتصور أضرارَها فيقع فيها. وهذا هو ما يريده الشيطان منه بالذات.

الوجه الثاني

عندما تنطلق المعاني من القلب تنفذ في الخيال مجردةً من الصور، وتكتسي الأشكالَ والصور هناك. والخيالُ هو الذي ينسج دائما ولأسباب معينة، نوعا من الصور، ويعرض ما يهتم به من الصور على الطريق، فأيّما معنىً يرد، فالخيال إمّا يُلبسه ذلك النسيج أو يعلّقه عليه أو يلطخه به، أو يستره به؛ فإن كانت المعاني منـزهةً ونقيةً، والصور والأنسجة ملوثةً دنيئةً فلا إلباسَ ولا إكساء، وإنما مجرد مسٍّ فقط. فمن هنا يلتبس على الموسوس أمرَ التّماس فيظنه تلبسا وتلبيسا، فيقول في نفسه: يا ويلتاه! لقد تردى قلبي

في المهاوي، وستجعلني هذه الدناءة والخساسة النفسية من المطرودين من رحمة الله. فيستغل الشيطان هذا الوتر الحساس منه استغلالا فظيعا.

ومرهم هذا الجرح العميق هو: كما لا يؤثر في صلاتك ولا يُفسدها ما في جوفك من نجاسة، بل يكفي لها طهارة حسية وبدنية، كذلك لا تضر مجاورةُ الصور الملوثة بالمعاني المنـزّهة والمقدسة.

مثال ذلك: قد تكون متدبرا في آية من آيات الله، وإذا بأمرٍ مُهيِّجٍ من مرضٍ يفاجئك، أو من تدافع الأخبثين، يلحّ على خيالك بشدة، فلاشك أنّ خيالك سينساق إلى حيث الدواء، أو قضاء الحاجة، ناسجا ما يقتضيه من صور دنيئة. فتمر المعاني الواردة في تدبرك من بين الصور الخيالية السافلة. دَعْها تمر، فليس ثمة ضرر ولا لوثة ولا خطورة. إنّما الخطورة فقط هي في تركيز الفكر فيها، وتوهم الضرر منها.

الوجه الثالث

هناك بعض علاقات خفية تسود بين الأشياء، وربما توجد خيوط من الصلة، حتى بين ما لا نتوقعه من الأشياء. هذه الخيوط إمّا أنها قائمة بذاتها، أي حقيقية، أو أنّها من نتاجات خيالك الذي صنع هذه الخيوط حسب

ما ينشغل به من عمل. وهذا هو السر في توارد خيالات سيئة أحيانا عند النظر في ما يخص أمورا مقدسة، إذ «التناقض الذي يكون سببا للابتعاد في الخارج يكون مدعاة للقرب والتجاور في الصور والخيال» كما هو معلوم في علم البيان. أي إنّ ما يجمع بين صورتي الشيئين المتناقضين ليس إلّا الخيال. ويُطلق على هذه الخواطر الناتجة بهذه الوسيلة: تداعي الأفكار.

مثال ذلك: بينما أنت تناجي ربك في الصلاة بخشوع وتضرع وحضور قلب مستقبلا الكعبة المعظمة، إذا بتداعي الأفكار هذا يسوقك إلى أمور مشينة مخجلة لا تعنيك بشيء. فإذا كنت يا أخي مُبتلىً بتداعي الأفكار، فإيَّاك إيَّاك أن تقلق أو تجزع، بل عُد إلى حالتك الفطرية حالما تنتبه لها. ولا تشغل بالَك قائلا: لقد قصّرت كثيرا.. ثم تبدأ بالتحري عن السبب.. بل مر عليها مَرّ الكرام لئلا تقوى تلك العلاقاتُ الواهية العابرة بتركيزك عليها، إذ كلما أظهرت الأسى والأسف وزاد اهتمامُك بها انقلب ذلك التخطر إلى عادة تتأصّل تدريجيا حتى تتحول إلى مرض خيالي. ولكن لا.. لا تخشَ أبدا، إنه ليس بمرض قلبي، لأنّ هذه الهواجس النفسية والتخطر الخيالي

هي في أغلب الحالات تتكون رغما عن إرادة الإنسان، وهي غالبا ما تكون لدى مرهفي الحس والأمزجة الحادة. والشيطان يتغلغل عميقا مع هذه الوساوس.

أما علاج هذا الداء فهو:

اعلم أنّه لا مسؤولية في تداعي الأفكار، لأنّها لا إرادية غالبا، إذ لا اختلاط ولا تماس فيها، وإنما هي مجرد مجاورة ولا شيء بعد ذلك، لذا فلا تسري طبيعةُ الأفكار بعضها ببعض. ومن ثم فلا يضر بعضها بعضا. إذ كما أن مجاورة ملائكة الإلهام للشيطان حول القلب لا بأس فيها، ومجاورة الأبرار للفجار وقرابتهم ووجودهم في مسكن واحد لا ضرر فيه، كذلك إذا تداخلت خواطر سيئة غير مقصودة بين أفكار طاهرة نـزيهة لا تضرّ في شيء إلّا إذا كانت مقصودة، أو أن تشغل بها نفسك كثيرا، متوهما ضررها بك. وقد يكون القلب أحيانا مرهقا فينشغل الفكر بشيء ما -كيفما اتفق- دون جدوى، فينتهز الشيطان هذه الفرصة ويقدّم الأخيلة الخبيثة وينثرها هنا وهناك.

الوجه الرابع

هو نوع من الوسوسة الناشئة من التشدد المفرط لدى التحرّي عن الأكمل الأتم من الأعمال. فكلما زاد المرء

في التشدد هذا -باسم التقوى والورع- ازداد الأمر سوءا وتعقيدا، حتى ليوشك أن يقع في الحرام في الوقت الذي يبتغي الوجه الأولى والأكمل في الأعمال الصالحة. وقد يترك «واجبا» بسبب من تحرّيه عن «سنّة» حيث يسأل نفسَه دائما عن مدى صحة عمله وقبوله، فتراه يعيده ويكرره، قائلا: « تُرى هل صحّ عملي؟ » حتى يطول به الأمر فييأس، ويستغل الشيطان وضعَه هذا فيرميه بسهامه ويجرحه من الأعماق.

ولهذا الجرح دواءان اثنان:

الدواء الأول: اعلم أن أمثال هذه الوساوس لا تليق إلّا بالمعتزلة الذين يقولون: «إن أفعال المكلفين من حيث الجزاء الأخروي حسنة أو قبيحة في ذات نفسها، ثم يأتي الشرعُ فيقرر أنّ هذا حسن وهذا قبيح. أي إنّ الحسن والقبح أمران ذاتيان موجودان في طبيعة الأشياء -حسب الجزاء الأخروي- أمَّا الأوامر والنواهي فهي تابعة لذلك ولإقرارها». ولذلك فإن طبيعة هذا المذهب تؤدي بالإنسان إلى أن يستفسر دائما عن أعماله: «تُرى هل تمَّ عملي على الوجه الأكمل المُرضي كما هو في ذاته أم لا؟».. أمَّا أصحابُ الحق وهم أهل السنة والجماعة فيقولون: «إنّ الله سبحانه

وتعالى يأمر بشيء فيكون حسنا وينهى عن شيء فيكون قبيحا». فبالأمر والنهي يتحقق الحُسن والقبح. أي إن الحُسن والقبح يتقرران من وجهة نظر المكلّف، ويتعلقان بحسب خواتيمهما في الآخرة دون النظر إليها في الدنيا.

مثال ذلك: لو توضأت أو صليت، وكان هناك شيء ما خفي عليك يفسد صلاتك أو وضوءك، ولم تطّلع عليه. فصلاتُك ووضوءُك في هذه الحالة صحيحان وحسنان في آن واحد. وعند المعتزلة: إنهما قبيحان وفاسدان حقيقةً، ولكنهما مقبولان منك لجهلك، إذ الجهل عذر.

وهكذا أيها الأخ المُبتلى، فأخذاً بمذهب أهل السنة والجماعة يكون عملُك صحيحا لا غبار عليه، نظرا لموافقته ظاهر الشرع. وإيّاك أن توسوس في صحة عملك، ولكن إياك أن تغتر به أيضا، لأنك لا تعلم علم اليقين، أهو مقبول عند الله أم لا؟.

الدواء الثاني: اعلم أنّ الإسلام دين الله الحق، دينُ يُسر لا حرج فيه، وأنّ المذاهب الأربعة كلها على الحق. فإن أدرك المرء تقصيرَه تلافاه بالاستغفار الذي هو أثقل ميزانا من الغرور الناشئ من إعجابه بالأعمال الصالحة. لذا فإن يرى مثل هذا الموسوس نفسَه مقصرا في عمله ويستغفر ربه

خير له ألف مرة من أن يغتر إعجابا بعمله. فما دام الأمر هكذا، فاطرح الوساوس واصرخ في وجه الشيطان: إن هذا الحال حرج، وإن الاطلاع على حقيقة الأحوال أمر صعب جدا، بل ينافي اليسر في الدين، ويخالف قاعدة: «لا حَرجَ في الدين» و«الدين يُسر». ولابد أن عملي هذا يوافق مذهبا من المذاهب الإسلامية الحقة، وهذا يكفيني. حيث يكون وسيلة لأن ألقي بنفسي بين يدي خالقي ومولاي ساجدا متضرعا أطلب المغفرة، وأعترف بتقصيري في العمل، وهو السميع المجيب.

الوجه الخامس

وهو الوساوس التي تتقمص أشكال الشبهات في قضايا الإيمان:

فكثيرا ما يلتبس على الموسوس المحتار خلجات الخيال، فيظن أنها من بنات عقله. أي يتوهم أن الشبهات التي تنتاب خيالَه كأنها مقبولة لدى عقله، أي إنها من شبهات عقله، فيظن أنّ اعتقاده قد مسّه الخلل.. وقد يظن الموسوس أحيانا أخرى أن الشبهة التي يتوهمها إنما هي شكّ يضرّ بإيمانه.. وقد يظن تارة أخرى أن ما يتصوره من رؤى الشبهات كأن عقلَه قد صدّقه.. وربما يحسب

أن كلّ تفكير في قضايا الكفر كفر، أي إنه يحسب أن كل تحرٍ وتمحيص، وكل متابعة فكرية ومحاكمة عقليه محايدة لمعرفة أسباب الضلالة أنه خلاف الإيمان. فأمام هذه التلقينات الشيطانية الماكرة يرتعش ويرتجف، ويقول: «ويلاه! لقد ضاع قلبي وفسد اعتقادي واختل». وبما أنه لا يستطيع أن يصلح تلك الأحوال بإرادته الجزئية -وهي غير إرادية على الأغلب- يتردى إلى هاوية اليأس القاتل.

أما علاج هذا الجرح فهو: أنّ تَوهم الكفر ليس كُفرا كما أن تخيل الكفر ليس كفرا، وإنّ تصور الضلالة ليس ضلالة، مثلما أن التفكير في الضلالة ليس ضلالة. ذلك لأن التخيل والتوهم والتصور والتفكر.. كل أولئك متباين ومتغاير كليا عن التصديق العقلي والإذعان القلبي. إذ التخيل والتوهم والتصور والتفكر أمور حرة طليقة إلى حدٍ ما، لذلك فهي لا تحفَل بالجزء الاختياري المنبثق من إرادة الإنسان، ولا ترضخ كثيرا تحت التبعات الدينية. بينما التصديق والإذعان ليسا كذلك، فهما خاضعان لميزان، ولأن كلا من التخيل والتوهم والتصور والتفكر ليس بتصديق وإذعان فلا يعدّ شبهةً ولا ترددا. لكن إذا تكررت هذه الحالة -دون مبرر- وبلغت حالة من الاستقرار في النفس، فقد يتمخض

عنها لون من الشبهات الحقيقية، ثم قد ينـزلق الموسوس- بالتزامه الطرف المخالف باسم المحاكمات العقلية الحيادية أو باسم الإنصاف- إلى حالة يلتزم المخالف دون اختيار منه، وعندها يتنصل من الالتزامات الواجبة عليه تجاه الحق، فيهلك. إذ تتقرر في ذهنه حالة أشبه ما يكون بالمفوّض والمخوّل من قبل الطرف المخالف أي الخصم أو الشيطان.

ولعل أهم نوع من هذه الوسوسة الخطيرة هو أن الموسوس يلتبس عليه «الإمكان الذاتي» و«الإمكان الذهني» أي إنه يتوهم بذهنه ويشك بعقله ما يراه ممكنا في ذاته، علما بأن هنالك قاعدة كلامية في علم المنطق تنص على: «أن الإمكان الذاتي لا ينافي اليقين العلمي، ومن ثم فلا تعارض ولا تضاد بينه وبين الضرورات الذهنية وبديهياتها».

ولتوضيح ذلك نسوق هذا المثال: من الممكن أن يغور البحر الأسود الآن، فهذا شيء محتمل الوقوع بالإمكان الذاتي، إلّا أننا نحكم يقينا بوجود البحر المذكور في موقعه الحالي، ولا نشك في ذلك قطعا. فهذا الاحتمال الإمكاني والإمكان الذاتي لا يولدان شبهة ولا شكا، بل لا يخلان بيقيننا أبدا.

ومثال آخر: من الممكن ألّا تغيب الشمس اليوم، ومن الممكن ألاّ تشرق غدا، إلاّ أن هذا الإمكان والاحتمال لا يخل بيقيننا بأي حال من الأحوال، ولا يطرأ أصغر شبهة عليه. وهكذا على غرار هذين المثالين فالأوهام التي ترِد من الإمكان الذاتي على غروب الحياة الدنيا وشروق الآخرة التي هي من حقائق الغيب الإيمانية لا تولد خللا في يقيننا الإيماني قطعا. ولهذا فالقاعدة المشهورة في أصول الدين وأصول الفقه: «لا عِبرةَ للاحتمال غير الناشئ عن الدَّليل».

وإذا قلت: تُرى ما الحكمة من ابتلاء المؤمنين بهذه الوساوس المزعجة للنفس المؤلمة للقلب؟.

الجواب: إننا إذا ما نحّينا الإفراط والغلبة جانبا فإن الوسوسة تكون حافزةً للتيقظ، وداعيةً للتحري، ووسيلة للجدية، وطاردة لعدم المبالاة، ودافعة للتهاون.. ولأجل هذا كله جعل العليمُ الحكيم الوسوسةَ نوعا من سَوطِ تشويق وأعطاه بيد الشيطان كي يحث به الإنسان في دار الامتحان وميدان السباق إلى تلك الحِكَم. وإذا ما أفرط في الأذى، فررنا إلى العليم الحكيم وحده مستصرخين:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

خاتمة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ (آل عمران:١٨٥)

(درس للعبرة وصفعة قوية على رأس الغفلة)

يا نفسي!.. أيتها السادرة في الغفلة! يا مَن تَرينَ هذه الحياة حلوة لذيذة فتطلبين الدنيا وتنسين الآخرة.. هل تدرينَ بمَ تَشبهينَ؟ إنّك لتشبهين النعامة.. تلك التي ترى الصياد فلا تستطيع الطيران، بل تُقحم رأسها في الرمال تاركةً جسمَها الضَّخمَ في الخارج ظَنا منها أنّ الصياد لا يراها. إلا أن الصياد يرى، ولكنها هي وحدها التي أطبقتْ جفنيها تحت الرمال فلم تَعُدْ ترى!

فيا نفسي! انظري إلى هذا المثال وتأمّلي فيه، كيف أنّ حصر النظر كلِّه في الدنيا يُحوّل اللذة الحلوة إلى ألم مرير!.

هَبْ أنّه في هذه القرية «بارلا» رجلان اثنان: أحدهما قد رَحَلَ تسعة وتسعون بالمائة من أحبّته إلى إسطنبول وهم يعيشون هناك عِيشة طيبة جميلة، ولم يبقَ منهم هنا سوى شخص واحد فقط وهو أيضا في طريقه إلى الالتحاق بهم،

لذا فإن هذا الرجل مشتاق إلى إسطنبول أشدَّ الاشتياق بل يفكر بها، ويرغب في أن يلتقي الأحبابَ دائما. فلو قيل له في أي وقت من الأوقات: «هيَّا اذهبْ إلى هناك» فإنّه سيذهبُ فرحا باسما..

أما الرجل الثاني فقد رَحَلَ من أحبته تسعة وتسعون بالمائة، ويظن أن بعضهم فَنِيَ، ومنهم مَن انـزوى في أماكن لا تُرى. فَهَلَكُوا وتفرَّقوا حَسْبَ ظنه. فهذا الرجل المسكين ذو داء عُضال يبحث عن أنيس وعن سُلوان حتى عند سائح واحد، بدلا من أولئك جميعا، ويريد أن يغطّي به على ألم الفراق الشديد.

فيا نفسي! إنّ أحبَّتك كلَّهم، وعلى رأسهم وفي مقدمتهم حبيبُ الله ﷺ، هم الآن في الطرف الآخر من القبر. فلم يبق هنا إلّا واحد أو اثنان وهم أيضا متأهبون للرّحيل. فلا تُديرنّ رأسَكِ جَفِلَةً من الموت، خائفة من القبر، بل حَدِّقي في القبر وانظري إلى حفرته بشهامة واستمعي إلى ما يطلب. وابتسمي بوجه الموت برجولة، وانظري ماذا يريد؟ وإياكِ أن تغفلي فتكوني أشْبَه بالرجل الثاني!.

يا نفسي! لا تقولي أبدا بأن الزمان قد تغيّر، وأنّ العصر قد تبدّل، وأنّ الناس قد انغمسوا في الدنيا وافتتنوا بحياتها،

فهم سُكارى بهموم العيش.. ذلك لأنّ الموت لا يتغير، وأنّ الفراق لا ينقلب إلى بقاء فلا يتغير أيضا، وأنّ العجز الإنساني والفقر البشري هما أيضا لا يتغيران بل يزدادان، وأنّ رحلة البشرية لا تنقطع، بل تَحُثُّ السير وتمضي. ثم لا تقولي كذلك: «أنا مثل كل الناس». ذلك لأنّ ما من أحدٍ من الناس يصاحبك إلّا إلى عتبة باب القبر.. لا غير. ولو ذهبتِ تنشدين السُّلوان فيما يقال عن مشاركة الآخرين معك في المصيبة ومعيتهم لك، فانّ هذا أيضا لا حقيقة له ولا أساس مطلقا في الطرف الآخر من القبر!.

ولا تَظنّي نفسَك سارحةً مفلتةَ الزمام، ذلك لأنّـكِ إذا ما نظرت إلى دار ضيافة الدنيا هذهِ نَظر الحكمة والروّية.. فلن تجدي شيئا بلا نظام ولا غاية، فكيف تبقين إذن وحدَك بلا نظام ولا غاية؟! فحتى الحوادث الكونية والوقائع الشبيهة بالزلازل ليست ألعوبةً بيد الصدفة.

فمثلا: في الوقت الذي تشاهدين فيه بأنّ الأرض قد ألبست حُللا مزركشة بعضُها فوق بعض مكتنفةً بعضُها البعض الآخر من أنواع النباتات والحيوانات في منتهى النظام وفي غاية النقش والجمال، وترينها مجهّزة كلَّها من قمة الرأس إلى أخمص القدم بالحكم، ومزينة بالغايات.

وفي الوقت الذي تدور بها يشبه جذبةَ حبّ وشوق مولوية[1] بكمال الدقة والنظام ضمن غايات سامية.. ففي الوقت الذي تشهدين هذا، وتعلمين ذلك فكيف يسوغ إذن أن تكون الزلزلة الشبيهة بهزّ عطف كرة الأرض[2] مظهرةً بها عدمَ رضاها عن ثُقل الضّيق المعنوي الناشئ من أعمال البشر، ولا سيما أهل الإيمان منهم، كيف يمكن أن تكون تلك الحادثة المليئة بالموت، بلا قصد ولا غاية كما نشره ملحد ظنا منه أنها مجردُ مصادفة، مرتكبا بذلك خطأ فاحشا ومقترفا ظلما قبيحا؟ إذ صيَّر جميعَ ما فقده المصابون من أموال وأرواح هباءً منثورا قاذفا بهم في يأس أليم. والحال أنّ مثل هذه الحوادث تدّخر دائما أموال أهل الإيمان، محولةً إياها بأمر الحكيم الرحيم، إلى صَدَقةٍ لهم. وهي كفّارة لذنوب ناشئة من كفران النعم.

فلسوف يأتي ذلك اليوم الذي تجد الأرض المسخرة وجْهَهَا دميما قبيحا بما لَطَّخَ زينتَها شركُ أعمال البشر ولوّثها كفرانه، فتمسح عندئذٍ وجهها بزلزلة عظيمة بأمر الخالق، وتطهّره مفرغةً أهل الشرك بأمر الله في جهنم، وداعيةً أهل الشكر: «هيا تفضلوا إلى الجنة».

(١) تشبيه لطيف بالمريد المولوي الذي يدور حول نفسه وحول حلقة الذكر بحلاوة الخشوع ونشوة الذكر. والمولوية طريقة صوفية منتشرة في تركيا.
(٢) كتب البحث بمناسبة الزلزال الذي حدث في إزمير. (المؤلف)

أسرار العبادة

اعلم أن العبادة هي التي ترسِّخ العقائد وتُصيِّرها حالاً ومَلَكة؛ إذ الأمور الوجدانية والعقلية إن لم تنمِّها وتربِّها العبادةُ -التي هي امتثال الأوامر واجتناب النواهي- تكن آثارُها وتأثيراتها ضعيفة. وحال الإسلام الحاضرة شاهدة.

واعلم أيضاً أن العبادة سببٌ لسعادة الدارين، وسبب لتنظيم المعاش والمعاد، وسبب للكمال الشخصيّ والنوعيّ، وهي النسبة الشريفة العالية بين العبد وخالقه.

أما وجهُ سببيتها لسعادة الدنيا التي هي مزرعةُ الآخرة فمن وجوه:

منها: أن الإنسان خُلِق ممتازاً ومستثنى من جميع الحيوانات بمزاج لطيف عجيب، أنتج ذلك المزاجُ فيه ميلَ الانتخاب وميلَ الأحسن وميلَ الزينة، وميَلاناً فطرياً إلى أن يعيش ويحيى بمعيشة وكمال لائقين بالإنسانية.. ثم لأجل تلك الميول احتاج الإنسان في تحصيل حاجاته في مأكله وملبسه ومسكنه إلى تلطيفها وإتقانها بصنائع جمّة، لا يقتدر هو بانفراده على كلِّها. ولهذا احتاج إلى الامتزاج مع أبناء جنسه ليتشاركوا، فيتعاونوا، ثم يتبادلوا ثمرات

سعيهم. لكن لمّا لم يحدد الصانعُ الحكيم قوى البشر الشهوية والغضبية والعقلية بحدٍّ فطريّ لتأمين ترقّيهم بزَمْبَرَكِ[1] الجزء الاختياريّ -لا كالحيوانات التي حُدّدت قواها- حصل انهماكٌ وتجاوز.. ثم لانهماك القوى وتجاوزها -بسر عدم التحديد- تحتاج الجماعةُ إلى العدالة في تبادل ثمرات السعي.. ثم لأن عقلَ كل أحد لا يكفي في درْك العدالة احتاج النوع إلى عقل كلّي للعدالة يستفيد منه عقل العموم. وما ذلك العقل إلّا قانون كلّيّ، وما هو إلّا الشريعة.. ثم لمحافظة تأثير تلك الشريعة وجريانها لابد من مقنّنٍ وصاحب ومبلّغ ومرجع، وما هو إلّا النبيّ عليه السلام.. ثم إن النبيّ لإدامة حاكميته في الظواهر والبواطن وفي العقول والطبائع يحتاج إلى امتياز وتفوّق مادةً ومعنى، سيرةً وصورة، خَلْقاً وخُلُقاً. ويحتاج أيضاً إلى دليل على قوة المناسبة بينه وبين مالكِ الملك صاحبِ العالَم، وما الدليل إلّا المعجزات.. ثم لتأسيس إطاعة الأوامر وتأمين اجتناب النواهي يحتاج إلى إدامة تصوّر عظمةِ الصانع وصاحب المُلك في الأذهان وما هو إلا تجلي

---

(١) النابض.

العقائد.. ثم لإدامة التصور ورسوخ العقائد يحتاج إلى مذكِّر مكرَّرٍ وعمل متجدد، وما المذكِّر المكرر إلا العبادة.

ومنها: أن العبادة لتوجيه الأفكار إلى الصانع الحكيم، والتوجّهُ لتأسيس الانقياد، والانقيادُ للإِيصال إلى الانتظام الأكمل والارتباط به، واتباعُ النظام لتحقيق سرّ الحكمة. والحكمةُ يشهد عليها إتقان الصُنع في الكائنات.

ومنها: أن الإنسان كالشجر الذي عُلّق على ذروته كثيرٌ من خطوط الآلة البرقية، قد التفّت على رأسه رؤوسُ نظامات الخِلقة، وامتدت مشرَعةً إليه قوانينُ الفطرة، وانعكست متمركزة فيه أشعةُ النواميس الإلهية في الكائنات. فلابد للبشر أن يتمّمها ويربطها وينتسب إليها ويتشبث بأذيالها ليسري بالجريان العمومي حتى لا يُزلَق ولا يُطرَد ولا يُلقى عن ظهر هذه الدواليب المتحركة في الطبقات. وما هي إلّا بالعبادة التي هي امتثال الأوامر واجتناب النواهي.

ومنها: أن بامتثال الأوامر واجتناب النواهي يحصل للإنسان نِسَبٌ كثيرة إلى مراتب عديدة في الهيئة الاجتماعية، فيصير الشخصُ كنوعٍ؛ إذ كثيرٌ من الأوامر لاسيما التي لها

تماسّ بالشعائر والمصالح العمومية كالخيط الذي نيط به حيثيات ونُظّم فيه حقوق، لولاه لتمزقت وتطايرت.

ومنها: أن الإنسان المسلم له مناسباتٌ ثابتة وارتباط قوي مع كل المسلمين. وهما سببان لأُخوةٍ راسخة ومحبةٍ حقيقية بسبب العقائد الإيمانية والمَلَكات الإسلامية. أما سبب ظهور تلك العقائد وتأثيرها وصيرورتِها مَلَكة راسخة فإنما هي العبادة.

وأما جهة الكمال النفسيّ، فاعلم أن الإنسان مع صِغَر جِرمه وضَعفه وعَجزه وكونه حيواناً من الحيوانات ينطوي على روح غالٍ ويحتوي على استعداد كامل، ويتبطّن ميولا لا حصر لها، ويشتمل على آمالٍ لا نهاية لها، ويحوز أفكاراً غير محصورة، ويتضمن قوى غير محدودة، مع أن فطرته عجيبة كأنه فهرستة للأنواع والعوالم.

فالعبادة هي السبب لانبساط روحه وجِلاء قيمتِه.. وأيضاً هي العلةُ لانكشاف استعداده ونموّه ليناسبَ السعادة الأبدية.. وكذا هي الذريعةُ لتهذيب ميوله ونزاهتها.. وهي الوسيلة لتحقيق آماله وجعلها مُثمرة ريانة.. وكذلك هي الواسطة لتنظيم أفكاره وربطها.. وأيضاً هي السببُ لتحديد قواه وإلجامها.. وأيضاً هي

الصَيْقل لرَيْن الطبيعةِ على أعضائه المادية والمعنوية التي كلٌّ منها كأنه منفذٌ إلى عالم مخصوص ونوع إذا شفَّ.. وأيضاً هي المُوصل للبشر إلى شرفِه اللائق وكماله المقدَّر، إذا كانت بالوجدان والعقل والقلب والقالب.. وكذلك هي النسبة اللطيفة العالية، والمناسبةُ الشريفة الغالية بين العبد والمعبود. وتلك النسبة هي نهايةُ مراتب كمال البشر.

ثم إن الإخلاص في العبادة هو: أن تفعل لأنه أُمر بها، وإن اشتمل كلُّ أمر على حِكَم كلٌّ منها يكون علةً للامتثال، إلّا أن الإخلاص يقتضي أن تكون العلةُ هي الأمر، فإن كانت الحكمةُ علةً فالعبادة باطلة، وإن بقيت مرجِّحة فجائزة.



فهرس الكتاب

مقدمة ٥

الكلمة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم ٦

الكلمة الثانية

نظرة المؤمن والكافر إلى الدنيا ١٢

الكلمة الثالثة

العبادة سعادة عظمى والفسق شقاء ١٧

الكلمة الرابعة

الصلاة عماد الدين ٢٣

الكلمة الخامسة

وظيفة الإنسان الحقيقية ٢٦

الكلمة السادسة

التجارة الرابحة والخسارة الفادحة ٣٠

الكلمة السابعة

الإيمان بالله واليوم الآخر يحلان لغز الكون............ ٤٠

الكلمة الثامنة

الدنيا بين نظرة المؤمن والكافر ٤٩

الكلمة التاسعة

حكمة أوقات الصلاة ٦٣

الكلمة الحادية والعشرون

المقام الأول: شوقا إلى الصلاة ٧٩

المقام الثاني: الوسوسة وعلاجها ٩٠

درس للعبرة ١٠٢

أسرار العبادة ١٠٦

فهرس الكتاب ١١١